

التاريخ الباهر في الدولة النابكية (بالمؤصل)

تأليف

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

تحقيق

عبد الفتاد أحمد طليمات

ماجستير في التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملتمز الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة بالقاهرة
ومكتبة المشني ببغداد

وفاة جمال الدين الوزير (١٤٢ - أ)

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين (١) محبوساً . وكان له نحو سنة مريض فمضى لسبيله .

[وكان] عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير (٢) في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة ، كامل المروءة ، وسيرد من أخباره ما تعلم [منها] صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم — وهو رجل من الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه — قال : لم يزل جمال الدين مشغولاً بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست (٣) إلى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي بعض الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرقي . قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط . فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق (١٤٢ - ب) وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة [النبوية] على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليّ وذكّر (٤) . فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك . فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير . فلما كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعاً يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالمنا سرى جوده فوق الركاب ونأيله (٥)
يمر على الوادى فتثنى رماله عليه وبالنادى (٦) فتبكي (٧) أرامله

(١٤٣ - أ) فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول

(١) هو محمد بن غلى بن منصور الأصفهاني . (٢) بالاصل : النظر . (٣) الدست : الوزارة .

(٤) بالأصل : واذكره . (٥) عن الروضتين (ح / ١ / ص / ١٣٧) وبالأصل : فضائله .

(٦) بالأصل : وينادى (والتصحيح من الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٣٧) . (٧) عن الروضتين (ح / ١ / ص / ١٣٧)

وبالأصل : فيثنى . (وقد فضل المحقق ما في الروضتين ، فقد نقل أبو شامة الخبر والشعر من ابن الأثير ،

الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم (١) وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضاً . ودفنوه بالرباط الذى أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعاً .

فى ذكره شىء من أخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال ، رحماً بالناس متعظفاً عنهم ، عادلاً فيهم . فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالاً جزيلة عظيمة وبني الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة (٢) ، فكل ما فيها من ذلك ، فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الإمام المقتنى لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى بن أبى هاشم ، خلعا نسبية وهدية كثيرة حتى ممكنه [منه] .

وعمر أيضاً المسجد الذى (١٤٣ — ب) على جبل (٣) عرفات ، وعمل الدرج التى يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم .

وعمل بعرفات [أيضاً] مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعلان (٤) فى طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالسكس ، فغرم على ذلك مالا كثيراً . وكان يعطى أهل نعلان كل سنة مالا [كثيراً (٥)] ليتركوا (٦) الماء يجرى إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعا ، أنه بنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا فى ضر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يوارى عورته ، ولا ما يشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً إحتمينا به بمن يريدنا بسوء ، فاستغنينا (٧) فكيف لاندعو (٨) له (١٤٤ — أ) وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن على بن أبى منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه نفراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها .

(١) بالأصل : الحرم . (٢) النقرة : الفضة . (المعجم فى اللغة الفارسية) . (٣) بالأصل : الجبل . (٤) نعلان : فى (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وآخره نون . واد بين مكة والطائف . (٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ١٣٧) . (٦) بالأصل : ليتركوه . (٧) بالأصل : فاستغنينا . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص ١٣٧) . (٨) بالأصل : تدعوا .

وسمعت عن متولى ديوان صدقاته التى يخرجها على [باب (١)] داره للفقراء سوى الإدارات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته (٢) العجيبة التى لم ير الناس مثلها ، الجسر الذى بناه على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبنى أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أن الذى احتاج إليه [مثل] ابن الخجندى (٣) رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان ، وابن الكافى قاضى [قضاة (٤)] همدان وقصده (٥) ، فأخرج عليهما (٦) مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما (٧) من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل فى أيامه (١٤٤ - ب) مقصداً وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال فى الصدقات ، فكان يضيق على نفسه ويئته ليتصدق . حكى لى والدى قال : كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قنذراً ليعمل على وبر له ليلبسه بخمسة دنانير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لى قنذرا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير . قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . وحكى لى من أثق إليه من العدول بالموصل : إن الأقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل (٨) من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه ، وكلما فرغ أرسل إلى لأنفذ (٩) غيره فلم تمض إلا أيام يسيرة ، حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنقاد ذلك المال ، فأنفذ له شيئاً آخر فقضى ، ثم أرسل يطلب ما يخرج به ، فقال جمال الدين للرسول : والله ما عندى شيء ، ولكن خذ هذه المحافر [التى فى دارى (١٠)] وتصدقوا بثمانها [إلى أن يأتينى شيء آخر فإرسله إلى الشيخ عمر ، فبيعت وتصدقوا بثمانها (١١)] وعرفوه ذلك ، فلم يكن (١٤٥ - أ) عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول : قل للشيخ ، لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة ، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر ، بكى وباعها وتصدق بثمانها . وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرنى الشيخ وقال لى : إنطلق إلى مسجد الوزير (١٢) - وهو بظاهر

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) . (٢) بالأصل : أبنيه .

(٣) هو صدر الدين أبو بكر بن عبد اللطيف الخجندى توفى سنة ٥٥٢ (شذرات الذهب ، ح/٥/ص ١٦٣) .

(٤) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) . (٥) بالأصل : قصده . (٦) بالأصل : عليهما .

(٧) بالأصل : غيره . (٨) بالأصل : رجلى . (٩) بالأصل : لا ينفذ . (١٠) الإضافة من ،

الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) (١١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) .

(١٢) بالأصل : وزير (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص ١٣٨) .

الموصل — واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالاً من النصابي والخام ، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعها قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير (١) من الجمل ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل [إليه] هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه الرزمة وهذا (١٤٥ — ب) الكتاب (٢) ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيل فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي (٣) عليها اسم المدينة اخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيل بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري — والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادى — فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا (١٤٦ — أ) وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالركة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً وطلب شيئاً ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب السكاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، ولورمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت وهي ظاهرة لاحتياج إلى بيان ، فلها تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس (٤)

في سنة ستين وخمسة (٥) فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلهم بقلعة من فيها من الحماة الممانعين (٦) عنها ، ونازلها وضيق عليها وقتلها . وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران (١٤٦ — ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو

(١) بالأصل : كثيرة .

(٢) وردت بعض المراحل من « الرحبة » إلى « المدينة » مكررة بالأصل ، وقد اعتمد المحقق في ضبطها على أبي شامة (الروضتين ، ج ١/ص ١٣٨) ، حيث نقل الخبر من « النص » . (٣) بالأصل : التي .

(٤) بالأصل : بانياس . (٥) في ، السكامل (ج ٩/ص ٨٧) أن فتح بانياس كان في ذي الحجة سنة ٥٥٩ .

(٦) بالأصل : للممانين .

كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بقص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء (١) بانياس - وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان - فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنته بهذه (٢) الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر (٣) :

إن تـمـتـر الشكاك فيك بأذنك المـ	هـدى مطفي جـمـرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضللتـه	بالأمس بين غياطل وجبال
(١٤٧-أ) مسترجعا لك بالسعادة آية (٤)	ردت مطال الفصال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقـد	نلت الرباء بمـوشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه	كسريه عن كل حـد عال
فلو البحار السبعة استهوينـه	وأمرتهن قـذفـنه في الحـال

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنز - الذي سلم بانياس إلى الفرنج - قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان . فقال : كيف ذلك . قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة (٥) - وهو أيضاً للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار [إليه] على غرة (٦) من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتـهـز الفرصة وسار إلى المنيطرة (١٤٧ - ب) وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبي وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها (٧) فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون . ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه . ولو علموا أنه جريدة (٨) لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه في جمع كثير . فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

(١) بالأصل : شعره . (والتصحیح من ، الكامل ٢ / ٨٧) .
 (٢) بالأصل : يقول شعر (وقد اسقط المحقق ، اللفظ ، يقول ، لأنه زائد) .
 (٣) المنيطرة : في (ياقوت) : حصن بالشام قريب من طرابلس .
 (٤) بالأصل : أنه .
 (٥) بالأصل : غيره .
 (٦) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجاله فيها (محيط المحيط) .
 (٧) بالأصل : به .
 (٨) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجاله فيها (محيط المحيط) .

ذكره عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسة ، عاد أسد الدين وسار (١) إلى مصر . وكان بعد عودته من مصر ، لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق (٢) إليه . وكان مما يهيج على العود ، زيادة حقه على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد [إطفيح (١٤٨ — أ)] وعبر النيل (٣) عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية (٤) ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحذوهم خوفهم أن يملكها العسكر النورى ، فجدوا على الإسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النورى قد ساروا (٥) إلى الصعيد ، فبلغوا (٦) مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنجة وراءه ، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى (٧) ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة (٨) عددهم وعددهم وجددهم في طلبه ، فعزم على لقاءهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في (١٤٨ — ب) في هذا المقام الخطر ، الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلّة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا — وهو الذى لاشك فيه — فإلى أين نلتجئ وبمن نختصم (٩) ، وكل من في هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس — قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم — أن ترتاع من [لقاء (١٠)] عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد

-
- (١) بالأصل : سار . وقد اختلف المؤرخون في اليوم الذى سار فيه أسد الدين من دمشق إلى مصر . ففي الروضتين (١/ص/١٤٢) أن مسيره كان في تاسع ربيع الأول ، وفي مرآة الزمان (٨/ص/٢٦٨) في منتصف ربيع الأول ، وفي ابن شداد (٣٠/ص) في ١٢ ربيع الأول . أما في السكامل (٩/ص/٩٥) في شهر ربيع الآخر ، دون تحديد اليوم . (٢) بالأصل : يبق . (٣) بالأصل : (٣) بقصد أن يفتح وعبر النيل ... » دون ذكر إطفيح . (والتصحیح من الروضتين ج/١/ص/١٤٣) وإطفيح ، كما في (ياقوت) ، بالكسر في أوله والفاء والياء ساكنة وجاء مهمة . بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقه . (٤) بالأصل : الغربية . (٥) بالأصل : سار . (٦) بالأصل : ببلغ . (٧) في السكامل (٩/ص/٩٧) جمادى الآخرة . (٨) بالأصل : بكث . (٩) بالأصل : بجتمى . (١٠) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/١٤٣) .

عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش — وكان من الشجاعة بالمكان المشهور — وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم المملوك ، بل يكون فلاحاً أو في بيته مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء عذر تفتنون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه منذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقولن لكم : أنأخذون (١٤٩ — أ) أموال المسلمين وتفتنون (١) عن عدوهم ، وتسلبون مثل الديار المصرية تنصرف فيها الكفار . فقال أسد الدين : هذا رأي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبته ، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثروا بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب ، وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً (١٤٩ — ب) وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين (٢) حملوا [على القلب (٣)] — من المسلمين والفرنج — فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن فيهم الجراح ، وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضاً . وكان هذا من أعجب ما يورخ ، أن ألقى (٤) فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الإسكندرية (٥)

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالباين سار إلى ثغر الإسكندرية ، وجي (٦) مافي طريقه من (٧) القرايا والسواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجي أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

(١) بالأصل : وتفرقون . (والتصحیح من الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٤٣) (٢) بالأصل : عن الفرنج الدين ... (وقد أسقط المحقق لفظ : الفرنج ، لأنه زائد) . (٣) الإضافة ، من الروضتين (ح / ١ / ص / ١٤٣) . (٤) بالأصل : ألف . (والتصحیح من النص نفسه ص / ١٣٢) . (٥) بالأصل : ذكره ملك الشهيد رحمه الله ذكره ملكه ثغره الاسكندرية . (والتصحیح والترتيب من السكامل ح / ٩ / ص / ٩٥) . (٦) بالأصل : وجي . (٧) بالأصل : في .

وأما المصريون والفرنجة فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى (١٥٠ — أ) الإسكندرية — وبها صلاح الدين — في عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصبّر أهلها على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم (١) — وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان — ووصلته رسل المصريين والفرنجة يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى (٢) ذلك . وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلطون منها قرية واحدة ، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة (٣) ، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ (٤) عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر (١٥٠ — ب) فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي — وهو من أكابر أمراءه ، وخال صلاح الدين يوسف — ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع السكينة بمصر على طاعته وجميع كلمة الإسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجى [صاحب منبج] بها على نور الدين — وكان هو أقطعها إياها — فأرسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه

(٢) بالأصل : على .

(٣) بالأصل : ذى الحجة القعدة . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٤٣) .

(٤) بالأصل : انقاد .

قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقى بها إلى أن أخذها صلاح الدين (١٥١ — أ) منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية

نحر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين على بن بكتهين ، نائب أتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فن ذلك سنجان ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها . وكان نائبه بتكريت الأمير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ، ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة أتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عى وصمم ، وأقام بإربل إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته . وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا (١٥١ — ب) محافظا على حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه . وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعل وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الأحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغنى أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون منى كما أستحي منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم ، أتظنون أننى لا أعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلحكم عطائى بغير من ولا تكدير ، فلم تتركونى ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم فى شأنه :

ليس الغنى بسيد (١) فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

(١٥٢ — أ) وكان يعطى كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفذه (٢) جميعه فى العطاء والإنعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندى إليه من سكين ، ودرفش (٣) ، ومطرقة ، ومسلّة ، وخيوط ، ودسترك (٤)

(١) بالأصل : سيد . (٢) بالأصل : انفذ . (والتصحيح من ، الروضتين ١/١٠ ص/ ١٥٢) .

(٣) درفش : لفظ فارسى له أكثر من معنى ، منها : مخراز ، وهو المعنى المقصود هنا . (المعجم فى اللغة الفارسية) :

(٤) دسترك : لفظ فارسى ، معناه ، منشار صغير . (المعجم فى اللغة الفارسية) .

وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون (١) النقيبة (٢) لم تهزم له راية . وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبني مدارس وربط بالموصل وغيرها . بلغني أنه منحه الخيص بيص (٣) ، فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لا أدري ما تقول ، لكنني أعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسمائة دينار [وأعطاه] (٤) فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكازمه كثيرة تقتصر على بعضها .

ولما توفي كان الخاكم بإربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتولى لأموارها . وولى بعد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فارقها لخلف كان بينه (١٥٢ - ب) وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستتاب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه نخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه . وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف [ملكها]

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك (٥) العقيلي ، فكانت بيده ويد آبائه [من] قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهى من أمتع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لا يطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فأخذ بنو (٦) كلب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله بحباب وأحسن إليه ، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل (١٥٣ - أ) أيضا ، فسير إليها نور الدين عسكريا مقسده الأمير نخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفروا منها بشيء ، فأمدهم بعسكر (٧) جرار ، وجعل على الجميع الأمير

(١) بالأصل مقيمون . (٢) بالأصل : النقيبة . (٣) بالأصل : الخيص بيص . وهو الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد بن صفي ، توفي سنة ٥٧٤ هـ ، ترجمته في (شذرات الذهب ج٤/ص٢٤٧) ، ابن خلكان . (٤) الإضافة من الروضتين (ج١/ص١٥٢) . (٥) بالأصل : ملك . (٦) بالأصل : بنو . (٧) بالأصل : بعسكرا .

مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية - وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد أمراءه - فخصرها أيضاً فلم ير (١) له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ (٢) العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جداً لكنه لا حصن فيه . وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما أخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بنى مالك (٣) ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . (١٥٣ - ب) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام [أم] القلعة . فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقتاه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر الثالثة وملكها

وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الأول من سنة أربع وستين أيضاً ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا (٤) ، فنال المسلمين منهم أذى شديد ، وجور عظيم ، وقهر زائد ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرسي » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبههم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذو الرأي والتقدم (١٥٤ - أ) وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة [أهل (٥)] بلاده وفلاحها (٦) لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم (٧) الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم (٨) من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويججز العساكر ويسيرهم

(١) بالأصل : فلم يرى .

(٢) بالأصل : ياخذنا .

(٣) بالأصل : ملك .

(٤) بالإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٥٤) .

(٥) بالأصل : فاحلواهم .

(٦) بالأصل : ويحملونها .

(٧) بالأصل : وفلاحوها .

(٨) بالأصل : فاحلواهم .

إليها ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها . وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة (١) مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين [بذلك] كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج (١٥٤ — ب) في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر . وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، يخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى أمرا كان مفعولا . وكان شاور [قد] أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي (١٥٥ — أ) من قصرى يستغيث بك لتتقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولى أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبة القديمة ، وأن هواه معه خوفا من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون (٢) لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين ، وقالوا : نأخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من (٣) الرجال ونهود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره ، ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٤) فعجل (١٥٥ — ب) لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريباً . وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالتى المسلمون من الفرنج ، ويسئل له ثلث بلاد

(٣) بالأصل : ومن .

(٢) بالأصل : المسلمين .

(١) بالأصل : وخلاصة

(٤) سورة آل عمران : ٥٤ .

مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص — وهى إقطاعه — فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختر من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركان ستة ألف فارس وسار (١٥٦ — أ) هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلها (١) سلخ صفر ، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذى له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جرديك (٢) وعز الدين قليج ، وشرف الدين برغش (٣) ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وصلاح الدين يوسف ابن أيوب على كبره منه ، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ (٤) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه . وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدداً من رأس الماء منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين بما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم (١٥٦ — ب) نور الدين فسر ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشراً به ، والحق بيده ، فإنه كان فتياً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع (٥) عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك ، لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد معهم من داخله ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فسكتهم ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل

(١) بالأصل : فوصلها .

(٢) بالأصل : جوردك . (والتصحيح من ، الكامل / ٩ / ص / ١٠٠) .

(٣) بالأصل : برعس . (٤) سورة البقرة : ٢١٦ . (٥) بالأصل : وخام .

له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه وبعده ويمنيه، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ (١) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه إبنه السكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن (١٥٧ - أ) أسد الدين. فقال [له] أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقدم ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وخيئت لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد ويظهرون الفساد، فترك ما كان عزم عليه. فلما رأى العسكر [النوري (٢)] المظل من شاور، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم، فقالوا: إننا ليس لنا في البلاد شيء مهمما هذا على حاله، فأنكر ذلك، فاتفق أن بعض الأيام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته الاجتماع به، فلقبه صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمتضى إليه، فسار وهما معه قليلا، ثم ساوروه (٣) وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيراً، ولم يمكنهم (١٥٧ - ب) قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام (٤) ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه (٥) على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدوها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه، وقصد (٦) أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة — وهي التي كان فيها شاور — فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق (٧) له منازع ولا مناوى، وولى الأعمال من يثق إليه واستبد (٨) بالولاية، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها.

- | | |
|----------------------|--|
| (١) سورة النساء: ١١٩ | (٢) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/١٥٧) |
| (٣) بالأصل: شاوروه. | (٤) بالأصل: تمام. |
| (٥) بالتصحيح من، | (٥) بالأصل: خاف. |
| (٦) بالأصل: وقصدوا. | (٦) أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه |
| (٧) بالأصل: يثق | (٧) لم يبق (٧) له منازع |
| (٨) بالأصل: استبد | (٨) بالولاية، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت |

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين

يوسف بن أيوب (١٥٨ - أ)

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ (١) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه بمن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنج ، أتاه أمر الله الذي لا يحيد عنه ولا مفر منه ولا يحمى عليه ، ملك بكثرة رجال ولا يمنع عنه المعامل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي ، قد سار معه على كره منه . حكى لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بمحضر مع رسولى إليه ، يأمره بالحضور وتحته أنت على الإسراع فيما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقتا حلب على ميل منها لقيناه قادما فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز (٢) للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم أولا (١٥٨ - ب) وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبق [لنا] (٣) [عهم مقام بالشام] (وغيره) (٣) قال : فالتفت إلى عمى أسد الدين ، وقال : تجهز يا يوسف . [قال (٣)] : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقنه قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبدا ، فقال [عمى (٣)] لنور الدين : لا بد من مسيره معى فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس . ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال (٤) لى نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطانى ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفى ، أعطانى الله من مملكها ما لا كنت أتوقعه . هكذا (٥) حكى لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن (١٥٩ - أ) جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عيسى الدولة الياقوتى ، وقطب الدين خسرو بن تليل -

(١) سورة الأنعام : ٤٤ .

(٢) بالأصل : ليتجهز . (والتصحيح من ، الروضتين / ١/ ص ١٥٥) .

(٣) الإضافات من ، الروضتين (ح/ ١/ ص ١٥٥) . (٤) بالأصل : وقال .

(٥) بالأصل : هذا .

وهو ابن أخى أبي الهيثماء الهذبانى الذى كان صاحب إربل - ومنهم: سيف الدين على بن أحمد الهكارى - وجده كان صاحب قلاع الهكارية - ، ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمى - وهو خال صلاح الدين - ، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور فى قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويؤليه الأمر بعد عمه ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجال - كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين (١) وتعود البلاد إليه وعندده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين (٢) (١٥٩ - ب) « أردت عمرا وأراد الله خارجة » فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه به وأخذ كارها ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل » (٣) ، فلما حضر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة ، الجبة والعمامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أوائك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه . وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى معه ، فسعى مع سيف الدين على بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمى ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ومليك لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين (٤) ، وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقى (١٦٠ - أ) وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعد وزاد فى إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا . وعدل إلى عين الدولة الياروقى - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا (٥) - فلم تنفعه رقاؤه ولا نفذ (٦) فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر ليقضى الله أمرا كان مفعولا . وثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهونائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار (٧) ، ويكتب

(١) بالأصل : الباقين .

(٢) يختلف ابن أبى طى مع ابن الأثير فى سبب تولية الخليفة العاضد ، صلاح الدين بعد وفاة عمه . حيث يقول ابن أبى طى : « وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه ، وشجاعته وإقدامه على شاور فى موكله ، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يترقب ولا توقف ، فسارع إلى تقليده الوزارة » . (الروضتين ح/١/ص/١٧٣) (٣) بالأصل : بالسلاسل . (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٦١) . (٤) لفظ : الدين ، من اسم قطب الدين ، ساقط بالأصل .

(٥) بالأصل : جميعا . (٦) بالأصل : نفذ . (٧) الأسفهلار : لفظ مركب من مقطعين ، أسفه ، وهو فارسى ومعناه « المتقدم » ، سار ، وهو تركى ، ومعناه « العسكر » ، ومعنى اللفظ ، مقدم العسكر . (القلقشندي ، ح/٦/ص/٨٧) .

علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرد في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفلسار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل [لهم] الأموال بما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به (١٦٠ - ب) فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حشفه بظلمه . وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنتظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم [فيها] مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بضدده . فقال : أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك [خبره] إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

(١٦١ - أ) ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط

في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فبكتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ (١) . فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل (٢) ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من الخوف ، وأنه إن تخلف عن (١٦١ - ب) دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه وخلفى عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وصاروا (٣) من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسلها ، كما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً .

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ .

(٢) بالأصل : الليل . (والتصحیح من : الروضتين ح / ١ / ص / ١٨٠)

(٣) بالأصل : وساروا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الفرنج فنهبا وأغار عليها [واستباحها] ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخراؤها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين. فوصلوا إلى بلادهم فأوها خاوية على عروشها. وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكى لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري، سوى الثياب وغيرها.

(١٦٢ - أ) ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك (١) في رجب. وكان سبب حصره، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، وسير معه نور الدين عسكراً، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى، وفيليب بن الرقيق (٢) — وهما فارسا الفرنج في وقتها — في المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق (٣) بهما باقي الفرنج، فكانا في مائتي فارس وألف تركب (٤) ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام، فنزل بعشرا (٥) (١٦٢ - ب) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه. وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل.

(١) حصن الكرك: في (ياقوت). كرك. بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى. كلمة عجمية. اسم قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيلة وبحر القزم والبيت المقدس. وهى على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الرض.

(٢) بالأصل: قريب بن الدقيق (والتصحیح من، الرضتين، ح/١/ص/١٨٣). (٣) بالأصل: يلتحق..

(٤) تركبى: تعريب Turcopole جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك (أو عرب) وأمهاتهم يونان. (الاعتبار

تحقيق فيليب حتى. ص/٥١/حاشية/٦٥). (٥) عشرا: في (ياقوت) بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح

الناء المثناة من فوق. موضع بحوران من أعمال دمشق.

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام

وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضاً في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وديار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها . إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين (١) ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار إلى بعلبك ليحمر ما تهدم من أسوارها وقلاعها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصل أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب بعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة (١٦٣ - أ) ثم إلى بارين . وكان شديد الخذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم (٢) لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكّل بالعمارة من بحث عليها ليلاً ونهاراً . ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها ، وبلغ الرعب بمن (٢) نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرّون على أن يأتوا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها ، أقام فيها وبأشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين (٤) ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال ما لا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون نور الدين على (١٦٣ - ب) بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده [من قصد الآخر (٥)] .

ذكره غزوة لسرية نورية (٦)

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة ، قد سار في عسكره — وهم مائتا فارس — إلى الخدمة النورية وهو بعشتر ، فلما وصل إلى [قرية] اللبوة — وهى من أعمال بعلبك — ركب متصيداً ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنّج قد ساروا للإغارة

(١) بالأصل : معرين .

(٢) بالأصل : بمن .

(٣) بالأصل : منه .

(٤) بالأصل : والبنائين . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/٨ / ١٨٦) . (٦) بالأصل : كسيرة

النورية . (والتصحیح من ، الكامل ، ٩/٦ / ١٠٦) .

على بلاد (١) الإسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد (٢) القتال ، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون ، فإن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعصمهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به . قال (٣) تعالى : ﴿ ولو تواعدتم لا ختلتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا (٤) ﴾ . ثم إن شهاب الدين سار بالأسرى ورءوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورءوس القتلى ، فرأى فيها رأس (١٦٤ — أ) مقدم الاستبصار صاحب حصن الأكراد ، وكانت الإفرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولأنه شجاع (٥) في حلق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج فازداد سروره ، ﴿ وكمن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٦) ﴾ .

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكى

ابن آقسنقر رضى الله عنه وملك ابنه سيف الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد زنكى بن آق سنقر رضى الله عنه بالموصل . وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى — وهو أكبر أولاده [وأعزهم عليه وأحبهم إليه (٧)] — ، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لأنه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته [وكان عزيزه وحبيبه (٧)] ، وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور ، فخاف فخر الدين أن (١٦٤ — ب) يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والحاتون ابنة حسام الدين تمر تاش — زوجة قطب الدين — [فردوه (٧)] عن هذا رأى . فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلهم لولده سيف الدين غازى وتوفي [قطب الدين] وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة (٨) أشهر ونصفاً (٩) . ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً (١٠) وكان فخر الدين هو الذى يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فإنه كان في عنفوان شبابه وغرة حدائته .

(١) بالأصل : البلاد . (٢) بالأصل : أشد . (٣) بالأصل : قوله . (٤) سورة : الأنفال : ٤٢ . (٥) بالأصل : شجى . (٦) سورة البقرة : ٢٤٩ . (٧) الإضافات من الروضتين (١/ص/١٨٦) . (٨) بالأصل : وخس . (٩) بالأصل : ونصف . (١٠) بالأصل : مستنصرا . (والتصحيح من الروضتين ١/ص/١٨٦) .

حادثة تحت على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب (١) من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها (٢) (١٦٥ - أ) مطلق منهما ، فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين . فحكى لي والذي قال : جاءنا كتاب نحر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلى فيه على ما شؤهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة . قال : فشق ذلك على لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لا تظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أُمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولاً ملكك ليقتنى بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه . قال : فإظهرنا الأمر ، وشرع النواب يمسحون . وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبني وبينهما مودة ، إسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب نحر الدين جواباً عن كتابي ، فشكراني (١٦٥ - ب) ثم قال : وأيضاً تعود تراجعته . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام (٣) ، عدت يوماً إلى داري راكباً ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجباً لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلمنا على ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كلما جئتما في هذا الأمر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلنا إلى الموصل إلى من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت (٤) حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ،

(١) الجريب هنا مقياس الأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان . والجريب في الأصل ، مكبال ، وسعته ما يكفي من الحب لبذر مساحة معينة . ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . (ابن واصل ج ١/ ص ١٨٩ / حاشية ٢) . وفي كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ، أن الجريب أشل في أشل (الأشل ستون ذراعا) ومعناه ستون ذراعا طولا في مثلها عرضا ، فيكون تكسبها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة . (نقلا عن المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٣٧) .

(٢) بالأصل : وبعضهما .

(٣) تكرار بالأصل ، هكذا : عدت أيام .

(٤) بالأصل : قضت .

كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام (١٦٦ - أ) وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون ، وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا . ورأيت والدى إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضى أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين

رضى الله عنه

كان رحمه الله ورضى عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسناً إليهم كثير الإنعام عليهم ، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفاً على مأمورهم وأميرهم ، حليماً عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زللهم ، كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم ، فكان القائل أراد به بقوله (١) :

خلق كاه المزن طيب مذاقه	والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع	عمن جنى والسيف غير حليم
(١٦٦ - ب) كالغيث إلا أن وابل جوده	أبدأ وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة	والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان رضى الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر . حدثني والدى قال : إستدعاني يوماً وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لى : بلغنى أنك تهمل هذه الجنايات (٢) ولا تحفظها ، فقلت له : إني أعجز عن حفظها لأننى أكون فى بيتى والذردار يفعل فى القلعة ما يريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعى على بعض هؤلاء الملوك - وأومات إلى أولاده - لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتل العمارة [لو عمرت (٣)] يتحصل منها أضعاف هذا (٤) . فقال لى : جزاك الله خيراً ، فلقد نصحت وأديت الأمانة ، وأشرع فى عمارة هذه الأماكن التى تحتل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتى عنده ، ولم يزل يثنى على (٥) .

(١) بالأصل : بقوله يقول . (وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد) . (٢) الجنايات : جمع جناية ، وعناها فى الإصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته . (السبوك ، ح/١/ص/٤٨٨/حاشية ١) . (٣) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٧٨) (٤) لم يستطع المحقق فهم هذا الخبر بمخذاً فيه . والمفهوم يحمل من الخبر أنه يتعلق بأولاد قطب الدين . وقد ورد فى الروضتين (ح/١/ص/١٨٧) بنفس الغموض الموجود هنا فى النص . (٥) بالأصل : عليه . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٨٧) .

قال : وكان (١) السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين (١٦٧ - أ) وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الإتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألتني (٢) عن القرايا التي خاصه ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسى ، فقال : وما الذى قرر لك عليها فى مقابل تعبك . فقلت : لى من إنعام مولانا مالا حاجة لى إلى تقرير شىء آخر ، ثم المقرر لى من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا . فقال : لا يجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لى بعمالة الخاص جميعها فى بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيته كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمئة دينار (١٦٧ - ب) أميرى ، وليس لى بها من العمل كثير أمر . فقلت فى نفسى : ربما لا يعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أننى اغتنتم غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها فى هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك . قال : فلما سمع قولى ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الأوقات ونحن فيها — إذ كنت أتولاهما — فلا يخرج منها منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئاً صالحاً ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان فى ماله ، وأخذ من أموال الرعية أيضاً رشاً (٣) على مالا يجوز له فعله . قال : فأحضرهما بالموصل وأرسل إليه (٤) وهما فى ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال ريعتى ديناراً واحداً صلبته ، فإننى قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه (١٦٨ - أ) لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شىء عاقبتك على كذبك . فلم يصح عليه قول شىء فأعادته إلى شغله ، وقال للآخر : لولا أن لك على حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فغزله .

وكان رضى الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للبال ، يكثّر تعهد أصحابه ونوابه (٥) بالصلات السنية والعطايا الجزيلة (٦) ، ففرق أموالاً لا تحصى ولا تحد ، فمنها : ما كان جمع فى الأيام الشهيديّة

(٢) بالأصل : سألنى .

(١) بالأصل : فكان .

(٥) بالأصل : ونوابه .

(٤) بالأصل : إليهما .

(٣) بالأصل : رشى .

(٦) بالأصل : والجزيلة .

والأيام السيفية (١) ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هومن البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته فاستجيت الأنواء وهى هوامل
فاسم (٢) الغمام لديه وهو كنهور (٣) آل وأسماء البحار جداول
لم تحلل أرض من نداه (٤) ولا خلا من شكر ما يولى لسان قايـل

وكان رضى الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الإنفاق (٥) وإخراج الأموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحسانى على من يخدمنى فمن الذى يحسن إليهم ، وبالله أقسم إذا فكرت فى (١٦٨ - ب) الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكى : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارته البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التى يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

هينون لينون أيسار بنويسر سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا يا كبار
من يلق منهم يقل (٦) لا قيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السار

واذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبى صفرة (٧) - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة ابنة الحريث - وقد سئلت عن أولادها السكلمة أيهم خير - فقالت : فلان ، بل فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم (٨) خير . وهكذا كانوا رضى الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين (١٦٩ - أ) وخلافة

ولده المستضىء بأمر الله . رضى الله عنهم

توفى الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين فى التاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسائة . واسمه يوسف بن المقتضى لأمر الله . وتما نسيبه عند وفاة المستظهر بالله رضى الله عنه .

(١) المقصود بالأيام الشهدية ، أيام عماد الدين زنكى . وأما الأيام السيفية ، فهى أيام سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى . (٢) بالأصل : قاسم .

(٣) الكنهور من السحاب ، المتراكم الثخين ، وهو أيضا قطع من السحاب أمثال الجبال . (لسان العرب) . (٤) بالأصل : نداه .

(٥) بالأصل : الاتفاق . (٦) بالأصل : يقول . (٧) ولى المهلب بن أبى صفرة على

خراسان سنة ٧٨ . وتوفى سنة ٨٢ . وقد اشتهر أبناؤه فى حياته وبعد مماته ، وأخبارهم فى « السكامل » موزعة على السنين . (٨) بالأصل : أنهم .

وأمه أم ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسة . وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام . وكان أسمرًا ، تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز — وهو من ممالك المقتنى لأمر الله — وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد ، وله من الأتباع مثل علاء الدين تنامش (١) ويزدن (٢) وغيرهما ، وكان محسناً إلى الأجناد . فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقوا ووضعوا الطبيب (٣) على أن يصف له ما يؤذيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم إنه أدخله (٤) وأغلق عليه الباب إلى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم (١٦٩ — ب) الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدى — وهو الحاكم فى الدولة — وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لأن المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه أستاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت [عليه] العافية . تخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجنود فربما جرى عليه عتب وإنكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير [خوفاً منه (٥)] إن دخل الدار [أن يأخذهما (٥)] ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبوابها وأظهر وفاة المستنجد ، وأحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه (٦) المستضى بأمر الله ، وشرطا عليه (١٧٠ — أ) شروطاً ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيراً وابن كمال الدين أستاذ الدار (٧) ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدى الحال ، فصفق يداً (٨) على يد ، وقرع سنه ندماً على ما فرط فى عوده إلى داره ، حيث لا ينفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس (٩) للعزاء والبيعة للمستضى ، فمضى إلى دار الخلافة ومعه زعم الدين بن جعفر ، وهو صاحب الخزن ، فلما دخلها صرف إلى موضع من الدار وقتل وقطع قطعاً وألقى فى دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين إلى داره فحمل جميع ما له فيها من مال وغيره ، فرأيا فى ذلك خطوط المستنجد بالله إليه يأمره

(١) بالأصل : شامش ، (والتصحيح من : السكال ، ح/٩/ص/١٠٨) (٢) بالأصل : يزدان ، (والتصحيح من : السكال ، ح/٩/ص/١٠٨) . (٣) بالأصل : الطبيب . (٤) بالأصل : أدخلها . (٥) الإضافة من : السكال (ح/٩/ص/١٠٩) . (٦) بالأصل : ولقب . (والتصحيح من : السكال ، ح/٩/ص/١٠٩) . (٧) بالأصل : أستاذ دار . (والتصحيح من : السكال ، ح/٩/ص/١٠٩) . (٨) بالأصل : فسفق يد . (٩) بالأصل : للجلوس .

فيها (١) بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفوا عليه ، علما برأته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم ينفعهما (٢) ندمهما (٣). وأما زعيم الدين جعفر ، فإن عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الأعمال (١٧٠ - ب).

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوش كثيرا ولم يترك بالعراق مكسأ . وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعيات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل

وغيرها من البلاد الجزرية

وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضى الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء (٤) نحر الدين عبد المسيح واستبداده (٥) بالأمر وحكمه على سيف الدين غازي ، أنف لذلك وكبراديه وشق عليه . وكان يبغض نحر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة (٦) ، وكان رحمه (١٧١ - أ) الله لنا رفيقاً عادلاً ، فقال : أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبى الفرات عند قلعة جعبر (٧) مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ، ثم سلمها على شيء إقترحه (٨) ، فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها . وسار إلى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم (٩).

(١) بالأصل : فيهما . (٢) بالأصل : ينفعه . (٣) بالأصل : ندمها .
(٤) بالأصل : واستلاء . (٥) بالأصل : واستبداده . (٦) أى الدقة في تنفيذ القانون .
(٧) بالأصل : جبر . (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٨٧) . (٨) بالأصل : أقرحه .
(٩) بالأصل : وغيرها .

فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فعاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه قطب الدين (١) . ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة (٢) بلد ، وعبر دجلة في مخاضة (١٧١ - ب) عندها (٣) إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان نحر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضى الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران (٤) وغيرها يستنجد به ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن قصد الموصل ، ويقول [له] : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته — وكان بسنجار — فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببنى أخي منك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ (٥) من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكك نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام (١٧٢ - أ) بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندى وعامى معه لحسن سيرته وعدله ، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم [عزموا] على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم نحر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الأمان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك (٦) في الموصل بل تكون عندى بالشام ، فإنى لم آت لأخذ البلاد من أولادى ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أئنتارية أولادى ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازى

(١) فى الكامل (١١٠/ص/٩) أن كمال الدين الشيرزورى ، علق على إبقاء نور الدين ، سيف الدين بالموصل وإقطاعه سنجار لعماد الدين بقوله « هذا طريق إلى أذى يحصل بيت أتابك ، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين ، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء » : يقول ابن الأثير « فمكن ذلك كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسة » وقد ذكر ابن الأثير — فى الكامل ، فى أخبار سنة ٥٧٠ — إضمار عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ضد أخيه سيف الدين .

(٢) بلد : فى الاصطلاح (ص/٥٢-٥٣) ، مدينة صغيرة على غرب دجلة ، وليس بهاماء جار سوت دجلة ، وبها شجر وزروع ومباحس كثيرة . وبينها وبين الموصل مرحلة .
(٣) بالأصل . عندها .
(٤) بالأصل : أرانية (التصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٨٨) .
(٥) بالأصل : الإفرغ .
(٦) بالأصل : مقاه .

على الموصل ، وولى بقلعتها خادماً له يقال له سعد الدين كمشكين وجعله دزداراً فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى (١٧٢ — ب) الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءت خلعة الإمام المستضى بأمر الله فلبسها (١) ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المسكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد (٢) ، وأمر ببناء الجامع النورى فبنى ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام ، فقبل له : إنك تحب الموصل والمقام (٣) بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضاً أننى [ههنا (٤)] لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه نحر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كثيراً .

ذكر غزوة [نور الدين] إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

فى سنة سبع وستين وخمسة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين فى لاذقية مركبين منها مملوعين (٥) (١٧٣ — أ) من الأمتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم فنسكتوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج فى إعادة ما أخذوه فغاطوه ، واحتجوا بأمر منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ [كل] مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضى الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلم يردوا شيئاً ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا فى بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية وبعضهم نحو طرابلس (٦) ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة

(١) فى ، ابن الفرات (ح/٧/ص/٥٨) ، أنه لما حاصر نور الدين الموصل ، عزم الخليفة المستضى بالله على نصره سيف الدين غازى . فلما علم نور الدين بذلك ، أرسل إليه الهاد الكاتب برسالة يذكر فيها أنه كبير البيت ووارثه ، وأنه لا يبغي إلا مصلحة أبناء أخيه ، ويستأذنه فى دخول الموصل ، عندئذ أذن له الخليفة بدخولها وأرسل له الخلع .

(٢) أنظر منشور نور الدين باطلاق المسكوس فى ، الروضتين (ح/١/ص/١٦) .

(٣) بالأصل : القيام . (والتصحیح ، من الروضتين ، ح/١/ص/١٨٨) .

(٤) الإضانة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٨٨) .

(٥) بالأصل : مملين . (٦) بالأصل : طرابلس .

وكذلك غيرهما، ونهب وخرب، وغنم المسامون الكثير وعادوا إليه وهو بعرة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب.

وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل [نور الدين] من النهب والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه (١٧٣ - ب) من المركبين، ويحدد (١) معهم الهدنة فأجابهم إلى ذلك. فكانوا في ذلك كما يقال، اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم، وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها.

نادرة غريبة في زماننا هذا (٢)

قد علم الناس قلة الأمانة في هذه الأعصار بل عدمها، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين، كان لوالدى فيهما تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار، فكل من إسمه على ثوب أخذه. وكان في الناس من يأخذ ما ليس له، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة — وكان نصرانياً — فلم يأخذ إلا ما عليه إسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا [شئ (٣)] كثير بهذا السبب، وكان الذى حصل له من مالنا أكثر من الذى له، فلما عاد إلينا سلم الذى لنا (٤) إلى والدى، فامتنع من أخذه وقال [له]: خذ أنت الجميع فإنك أخرج إليه، وأنا في غنى عنه، فلم يفعل، فقال: خذ (١٧٤ - أ) أنت النصف وأنا النصف، واجتهد به والدى فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام، وإذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسى وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً (٥) من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب وإسمى عليها، فلم يسهل عليه [أن] يردّها، وسأل عني وقصصني وهى معه، وحضر عندى الساعة وسلمها إلىّ، وقال: قد تركت طريق تبرأ ذمتي، وأخذنا نحن ما عليه إسمنا بعد الجهد. وطلب والدى الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالا يتجر فيه فلم يفعل، وعاد إلى بلده. وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

(٣) الإضافة من، الروضتين

(٢) بالأصل: هذه.

(١) بالأصل: وتجدد.

(٤) بالأصل: له. (والتصحيح من، الروضتين، ح/١/ص/٢٠٣)،

(ح/١/ص/٢٠٣).

(٥) لعله نسبة إلى صانع الفقاع، والفقاع شراب يتخذ من الشعير.

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر

وإقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر ، وخطب فيها للإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح (١٧٤ — ب) الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين ، فلم يصنع نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه ، واتفق أن العاضد مرض — وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له — فاستشار أمراءه كيف [يكون (١)] الإبتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمي يعرف بالأمير العالم — وقد رأيناه بالموصل كثيراً — فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد (١٧٥ — أ) المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء بأمر الله ، فلم ينكر أحد (٢) [ذلك (٣)] . فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : إن سلم فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم [بقطع الخطبة (٤)] .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه . وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش — وهو خصي — لحفظه (٥) وجعله كأستاذ دار للعاضد ، لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكّل بحفظهم ، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر (١٧٥ — ب) من العبيد والإماء ، فأعقق البعض ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٩٤) . (٢) بالأصل : أحدا . (٣) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٩٤) . (٤) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١١١) . (٥) بالأصل : بحفظه .

ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمش إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم (١) على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بإفريقية والمغرب في ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين . وأول من ظهر منهم ، المهدي أبو محمد عبيد الله (٢) وهو [الذي] بنى المهديّة وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ابن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد — وهو الذي سير العساكر إلى مصر مع مولاه جوهري ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة — وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده إلى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة (١٧٦ - أ) وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ، ثم ابنه العزيز بالله (٣) ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لإعزاز دين الله ، ثم المستنصر بالله [ثم المستعلي بالله ، ثم الأمر بأحكام الله (٤)] ثم الحافظ لدين الله ، ثم الظاهر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله وهو آخرهم . ولقد أتينا على ذكر ما أجمعناه في المستقصى في التاريخ ، وإنما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة إليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، إختار منه ما أراد ووهب أهله وأمرائه (٥) ، وباع منه [شيئاً] كثيرآ . وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وعمر الدهور ، فمنه : القضيبي الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجليل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب المستنصر بأمر الله بمصر ، أرسل نور الدين (١٧٦ - ب) إليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراماً له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك أيضاً سير خلعاً لصلاح الدين ، إلا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

(١) بالأصل : قدم . (٢) بالأصل : عبد الله . (٣) بالأصل : بالله العزيز .
(٤) ما بين الحاصرتين ، سقط بالأصل . (٥) بالأصل : وأمرآيه .

ذكر الوحشة بين نور الدين

وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين أيضاً، جرى ما أوجب نفرة نور الدين من (١) صلاح الدين . وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج ، والنزول على السرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ، ويحتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر ، وكان (١٧٧ — أ) نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظرو ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازماً على قصد السرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه (٢) من عزم نور الدين [على] قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه (٣) أحد منهم بشيء ، فقام تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من (١٧٧ — ب) أهله . فشتتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه — وكان ذا رأى ومكر وعقل — وقال لتقى الدين : أقعد ، وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، أظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ، فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نرجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل (٤) الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجيء ، يأمر بك كتاب مع

(١) بالأصل : عن .

(٢) بالأصل : بلغه . (والنصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٠٤) .

(٣) بالأصل : يجبه .

(٤) بالأصل : يقبل . (والنصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٠٤) .

نجا ب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن بمالك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ، ففترقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا (١) أيوب (١٧٨ - أ) بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون (٢) إليه ويعرفونه قولى ، وتكتب أنت إليه وترسل فى [هذا (٣)] المعنى وتقول : أى حاجة إلى قصدى ، يحىء نجا ب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى ، فهو إذا سمع (٤) هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت فى شأن . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

فى ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادى

وفى سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى . وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، واتخذت (١٧٨ - ب) فى سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همدان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم [يكنونوا (٥)] قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات [لها (٥)] ولربها (٦) ، فوجد بها راحة كثيرة [فقد] كانت الأخبار تأتية لوقتها ، فإنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً ، كتبوه لوقتة وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فأنحفظت (٧) الثغور بذلك . حتى أن طائفة من الإفرنج نازلوا ثغراً له ، فأتاه الخبر ليومه ، فكتب (٨) إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون (١٧٩ - أ) لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ورضى عنه ، ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

(١) بالأصل : خلى . (٢) بالأصل : فسيكتبون . (٣) الإضافة من ، الروضتين (٤) بالأصل : ذا اسم . (٥) الإضافة من ، الروضتين (٦) بالأصل : لربها . (٧) بالأصل : فأنحفظت . (٨) بالأصل : وكتب .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلعج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان السلجوقي ، وهي ملطية (١) ، وسيواس (٢) ، وقونية ، وأقصر ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلعج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا ، فسار إلى نور الدين مستنجرا به وملتجئا إلى ظله ، فأكرم نزله وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعد النصر والسعي في رد ملكه إليه . وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما . فلما قصده ذو النون ، راسل قلعج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلب عليه من بلاده فلم (١٧٩ — ب) يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين نحوه (٣) ، فابتدأ بحصن بهسنا (٤) ومرعش فملكهما (٥) وما بينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قلعج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل (٦) نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الإفرنج ما أزعجه (٧) فأجابه إلى الصلح . وكان في جملة رسالة نور الدين إليه : إني أريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أنك تجدد إسلامك على يدرسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام ، فإني لا أعتقدك مؤمنا — وكان قلعج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة — والثاني ، إذا طلبت عسكرك (٨) إلى الغزاة تسيره ، فإنك قد ملكت طرفا كبيرا (٩) من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادتهم ،

-
- (١) ملطية : ثغر من ثغور الجزيرة ممالي الروم . وهي مدينة كبيرة من أكبر الثغور التي دون جبل الدكام ، وتحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباح لا مالك له . وبين ملطية ومنبج أربعة أيام . وتبدأ بلاد الشام — من حيث المسافة الطولية — بملطية ، وتنتهي برفح . (الاصطخري ، ص ٤٣/٤٦/٤٧/٤٨) .
- (٢) سيواس : بلد بآسيا الصغرى ، يمر بواديتها نهر قرل إرمك . وهي واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية ، وعلى مسيرة يومين من توقات . (٣) بالأصل : نحواء . (٤) بالأصل : بهسني . (والتصحیح من ، ياقوت) وبهسنا : بفتح السين ونون وألف . قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ، ورستاقها هو رستاق كيسوم ، وهو على سن جبل عال . وهي اليوم (في زمن ياقوت) من أعمال حلب .
- (٥) بالأصل : فملكها . (٦) بالأصل : وأرسل . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/ص ٢١٤) .
- (٧) في مرآة الزمان (ح ٨/ص ٢٩٤) أن نور الدين علم أن الفرنج قد نزّلوا على حمص .
- (٨) بالأصل : عسكرا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/ص ٢١٤) . (٩) بالأصل : كثيرا (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/ص ٢١٤) .

فإما أن تنجذني بعسكرك^(١) لأقاتل بهم الإفرنج (١٨٠ — أ) وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم . والثالث أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخى ، وذكر أموراً غيرها . فلما سمع قليج أرسلان الرسالة ، قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة^(٢) وقد أجبته^(٣) إلى ما طلب ، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله . واستقر الصلح ، وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع نغر الدين عبدالمسيح في خدمة ذى النون ، فبقى العسكر بها إلى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان وملسكها .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل نور الدين

ابن عماد الدين زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقستقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلّة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع بتجهيز المسير^(٤) إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج (١٨٠ — ب) من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها [مع ابن أخيه سيف الدين^(٥)] في الشام لمنعه^(٦) من الفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتسى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهد وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز^(٧) للمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذي لا يرد .

حكى لى طبيب دمشق يعرف بالرجي — وهو من حذاق الأطباء — ، قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه^(٨) — وهو في بيت صغير بقلعة دمشق — وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته . فكان يخلو فيه للتعبّد في أكثر أوقاته ، فابتدأ^(٩) به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا إليه ورأينا ما به ، قلت له :

-
- (١) بالأصل : بعسكر ، (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢١٤) .
 (٢) بالأصل : الزندقة .
 (٣) بالأصل : اجته .
 (٤) بالأصل : للمسير .
 (٥) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١٢٤) .
 (٦) بالأصل : تمنعه .
 (٧) بالأصل : فتجهز .
 (٨) بالأصل : إليه .
 (٩) بالأصل : فاشدا (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢٢٨) .

[كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد (١)] فالآن (٢) ينبغي أن تنتقل عن هذا (١٨١ - أ) الموضع إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضى الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام ، والديار المصرية . وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة . وكان مولده التاسع عشر شوال من سنة إحدى عشرة وخمسمائة . وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله . وأنا أذكر من حاله ما تعلم [به] أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله إلا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح إسماعيل

رضى الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح إسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم (٣) ، وحلف له الأمراء والمقدمون (٤) بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام (١٨١ - ب) وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها . وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم . وحكى لى البقرة قتلىج الحكلى ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبى كمال الدين [محمد الشهرزورى] للأمراء ، ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه ، والمصلحة [أن] نشاوره فيما نفعله ، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة (٥) الملك الصالح ، فلم يوافق أغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم (٦) . قال : فلم يضر غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزیه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية

(١) الإضافة من ، الروضتين ، (ح / ١ / ص / ٢٢٨) .

(٢) بالأصل : كان . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٢٨) .

(٣) كان عمر الصالح إسماعيل ، إحدى عشرة سنة . (الكامل ، ح / ٩ / ص / ١٢٦) .

(٤) بالأصل : المتقدمون . (٥) بالأصل : بخدمة . (٦) بالأصل : ويخرجون . (والتصحیح من

الكامل ، ح / ٩ / ص / ١٢٦) .

عليها اسمه ، ويعرفه أن الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده . فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين (١٨٢ - أ) ولا أعلموه الحال ، كتب إلى الملك الصالح يعقبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده [وأخذها (١)] ليحضر في خدمته ويكفه . وكتب إلى كمال الدين وإلى الأمراء يقول : إن الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه ولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سوى ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه وإهمال أمر الملك الصالح ومصلحه حتى أخذت بلاده . فقال لهم كمال الدين : هذا الذى كنت حذرتكم [منه] فأقام الملك الصالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلّبهم عليه شمس الدين على بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وإخوته بحلب ، وأمرها (١٨٢ - ب) إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وأرسل إلى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب ، حتى يجمع (٢) العساكر ويسترد ما أخذه منه ، وإلا عجز سيف الدين إلى حلب ، ولا نقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولا يمكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين فى ملك البلاد الجزرية ما نذكره إن شاء الله تعالى .

فى ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود

رضى الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان (١٨٣ - أ) يوليه ، وإنعام يسديه . وقد تقدم من أحواله فى مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا . ونحن نذكر (٣) ههنا ما تعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أمة لا فتخرت به ، فكيف فى بيت واحد .

(٢) بالأصل : يستجمع .

(١) الإضافة من ، السكامل (١٢٦/ص/٩/ح) .

(٣) بالأصل : فدكره .

فأما زهده وعبادته وعلمه ، فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم (١) في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه (٢) بحله ولم يتعده إلى غيره ألبته . ولم يلبس قط ما حرمة الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر ، زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين (١٨٣ - ب) إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاها ويحيب عنه (٣) . وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة . قال : وإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (٤) فلما قلت له [ذلك] تسكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفها مالها والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس (٥) الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتح إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها (٦) . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين (١٨٤ -) ملكا (٧) قد وهبتها إياها فلأأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة . كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الإنقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه [اعتقادا] حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن (٨) اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغور العدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً

(١) بالأصل : واستفتاهم . (٢) بالأصل : أفتوه . (٣) بالأصل : ويجب عنهما .
(٤) الوظيفة : أى المبلغ المخصص لنفقتها ، كما يفهم من السياق . وفى (لسان العرب) : الوظيفة من كل شئ ، ما يقدر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب . وجمعها الوظائف ، والوظف . (٥) بالأصل : فيئس .
(٦) بالأصل : فيها . (٧) بالأصل : ملك . (٨) بالأصل : يدمن .

ونهاراً ، شتاءً وصيفاً ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً (١) لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الإنعطاف في السكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الإنعطاف (١٨٤ — ب) والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة . فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقل (٢) في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة ، وهي أفعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكى لي عنه ، إنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت [إليها] ، وبينما هم معه في حديثها ، وإذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقبل [له] : إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها لكان أنفع له . فقال : أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك [أنها] كانت تساوي (٣) أكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري (١٨٥ — أ) رحمه الله تعالى — وكان خصيصاً لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه إنبساط — قال : كنت معه يوماً في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فبكلمنا سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : أتدرى لأي شيء أجرى فرسي وألتفت ورأى ، قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها . وكان رحمه الله يصلي كثيراً من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده [فيه] تعصب بل الإنصاف سمجته في كل شيء . وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر . وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله (١٨٥ — ب) كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروف ولا ينكر منكر ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . « ومن سن سنة حسنة كان له أجرها

(١) الجمام (بالفتح) الراحة . وجم الفرس ، ترك فلم يركب ؛ فنعما من تعبته وذهب لعيأؤه . (لسان العرب) .

(٢) بالأصل : تسوى .

(٣) بالأصل : لعل .

وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة^(١)، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجي إليه الأموال الكثيرة ، فليذكر نبى الله سليمان بن داود عليه السلام مع [اتساع] ملكه ، وهو سيد الزاهدين فى زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت ، واليمن ، والحجاز ، وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين . وإن الزهد خلو القلب من حبة الدنيا لا خلو اليد^(٢) عنها .

وأما عدله

فإنه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك (١٨٦ - أ) فى بلد من بلاده ضريبة لا مكسا ولا عسرا ، بل أطلقها جميعها فى بلاد الشام ، والجزيرة جميعا ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها بما حكم عليه . وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم يتسع له نفس غيره . وكان يتحرى^(٣) العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم [أن] سار ذكره فى شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن شئنا لها نمضى أوامرنا . فمن أتباعه أحكامها ، أنه كان يوما يلعب بالكرة^(٤) بدمشق ، فرأى إنسانا [من أتباعه]^(٥) يحدث آخر يومىء بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فقال : لى مع الملك العادل حكومة^(٦) ، وهذا غلام القاضى ليحضره [معنى^(٧)] إلى مجلس الحكم يحاكمنى على الملك الفلانى ، فعاد إليه ولم (١٨٦ - ب) يتجاسر [أن] يعرفه ما قال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار إلى القاضى^(٨) يقول [له] : إبنى قد جمعت محاكما ، فاسلك معى ما تسلكه مع غيرى ، فلما حضر ساوى [بينه وبين] خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق ،

(١) حديث شريف . (٢) بالأصل : لا إليه عنها . (والتصحیح من الروضتين : ح / ١ / ص / ٧) .
(٣) بالأصل : يجرى . (والتصحیح من ، الروضتين : ح / ١ / ص / ٧) . (٤) بالأصل : الكورة .
(٥) الإضافة من ، الكواكب الدرية (مخطوط ، ورقة ٤ و) . (٦) أى خصومة .
(٧) الإضافة من . الكواكب الدرية (مصور ، لوحة / ١٠) . (٨) فى الروضتين (ح / ١ / ص / ٧) ، أنه كمال الدين بن الشهرزورى .

فقالوا : لا . فقال : إشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته [له] ، وهذا غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق ، الواقعة معه .

قال صاحب التاريخ . ومن عدله قدس الله روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت عليه البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة . وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكى لي من أثق به ، إنه دخل يوما إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل (١) عنه فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا ، فقال : إن [هذا] المال ليس لنا ولا لبنت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة مرة [أخرى] وقال : إذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا [المال] وأما أنا فريقي دقيقة (١٨٧ — ب) لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً فأعاده .

ومن عدله أيضا بعد موته — وهو [من] أعجب ما يحكى عنه — ، أن إنسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها (٢) صلاح الدين ، كان أجناده وأمرأؤه يفعلون ما يريدون ولا يمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يا نور الدين ، لورأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : لحفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل — وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه — فطيب قلبه ، ووهبه [شيئا] وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ، فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين (١٨٨ — أ) : وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بناء دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضى الله عنه ، أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل . وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه — وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك — واقتنوا الأملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكوى إلى كمال الدين ، فأَنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأَنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين ذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : إعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فن هو الذي يمتنع على كمال الدين ، والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته (١٨٨ — ب) فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة [في ملك (١)] فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما يبدى ، فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج أملاكى عن يدي أسهل عندي من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بيني وبين آحاد (٢) العامة في الحكومة (٣) . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات . وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء ، فبقى كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فقال لكمال الدين : ما أرى أحداً يشكو من شيركوه . فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا . فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها ، وإلى هذه السياسة ما أشدها . هذا مع أنه كان لا يريق دما ، ولا يبالغ في عقوبة ، وإنما كان يفعل (١٨٩ — أ) هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك . سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم [يقولون] إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ، لم ير جواكانه (٤) يعلو على رأسه ، وكان

(١) الإضافة من الروضتين (١ / ص ٨) (٢) بالأصل : أجساد . (والتصحیح من الروضتين ، ١ / ص ٨) . (٣) الحكومة هنا ، بمعنى القضاء . (٤) بالأصل : جواكانه .

ربما ضرب الكرة فتعلو ، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجو كان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وكان إذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين (١) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة (٢) فلم أرزقها . سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري — الفقيه الشافعي — وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين (١٨٩ — ب) فإنك عمادهم ، وإن أصبت والعياذ بالله في معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد . فقال له : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ، قبل من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملأه من بلادهم به . ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فإنه ما زال يخذله ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً (٣) ، وكان يقاتل به الفرنج . وكان يقول : إنما حملني على استمالته ، أن بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طلب انحبجر فيها فلا يقدر عليه ، فلها رأيت الحال هكذا ، بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج . وحين (٤) توفي نور الدين (١٩٠ — أ) وسلك من بعده غير هذا الطريق ، ملك المتولى للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقهه .

ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ، أقر إقطاعه (٥) عليه ، فإن كان الولد كبيراً ، استبد بنفسه ، وإن [كان] صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها . وكان ذلك سبباً عظيماً (٦) من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب . وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الإسلام . ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عياناً .

(١) تركش : كلمة فارسية ، معناها : جعبة ، كنانة (المعجم في اللغة الفارسية) وهي التي توضع فيها النبال .

(٢) بالأصل : الشهادة .

(٣) بالأصل : وحيداً .

(٤) بالأصل : وحيث .

(٥) بالأصل : الإقطاع .

(٦) بالأصل : سبب عظيم .

(١٩٠ - ب) وأما ما فعله من المصالح

الذى فعله من المصالح في بلاد الإسلام مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفاً منه . فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حاب ، وحماة وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس .

وبنى أيضاً المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان . ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله — وهو رجل من الصالحين — ، فقيل له : إن هذا [الرجل] لا يصلح لمثل هذا العمل . فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني (١٩١ - أ) أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي . وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم . وبني أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها . وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم ، إما برزلة أو بغيرها .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج . بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير . ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس — بعد أن فتحه المسلمون — مريضاً ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعادوته القول فتركتني ومضى ، فأنتفت نفسي وضائق الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لا أعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوى عزمي على قصد (١٩١ - ب) طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدالت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للرضى الذين به ، فلما رأيته قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسألني (١) عن حالتي فوصفتها (٢) له ، فمكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمل غلامك ما في هذه النسخة . فقلت : لا حاجة بي إلى ذلك ، فقد أغنانني الله عن مزاحمة الفقراء . فقال : يامولاي ، لا أشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وإنعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية

من هذا البهارستان . فقلت : أنا لا أرى ذلك . فقال : إنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم (١) ، فوجدت في نفسي بكلامه إنبساط . فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يا مولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق . فشكرته وعدت عنه ، رضى الله عنه .

(١٩٢ — أ) وبني أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبني أيضا الأبراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ (٢) الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلا (٣) يبلغ العدو منهم غرضاً . وكان [هذا] من أطف الفكر وأكثرها نفعاً ، رحمه الله تعالى .

وبني أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الإدارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيههم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذتقع عينه عليه ، ويعتقه ويجلسه معه على سجاده ويقبل عليه بحديثه . وكذا أيضاً كان يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والإحترام ، ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصده من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها . وبالجمله فكان أهل الدين (١٩٢ — ب) عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقبضون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول : ومن المعصوم ، وإنما السكامل من (٤) تعد ذنوبه . بلغني أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي — وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه — فحسده ذلك الأمير فثأل منه يوماً عند نور الدين ، فقال له : يا هذا ، إن صح ما تقول فله حسنة تغفر (٥) كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيمكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا —

(١) يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب وقف البهارستان فلم يره مشيراً بذلك ، وإنما هذا كلام شاع على السنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاجه الأغنياء للفقراء فيه . وإنما صرح بأن ما يبرز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء نفس ذلك بذلك « (الروضتين ، ج ١ / ص ٩) .
(٢) بالأصل : فأخذوا ، (٣) بالأصل : فلم .
(٤) بالأصل : ممن . (٥) بالأصل : يغفوا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ج ١ / ص ٩) .

إن صحت — مع وجود حسنة (١) ، على أننى والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لاؤذنيك ، فكف عنه . هذا والله هو الإحسان والفعل الذى [ينبغى أن (٢)] يكتب على العيون بماء الذهب .

(١٩٣ — أ) وبني بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف [عليها (٣)] وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوقا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للآيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة . وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الآيتام الذين يقرءون بها القرآن . وهذا فعل لم يسبق إليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام ، أن ووقف نور الدين فى وقتنا هذا — وهو سنة ثمان وستمائة (٤) — كل شهر تسعة ألف دينار صورية (٥) ، ليس فيها ملك غير صريح شرعى ظاهرا وباطنا ، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن (٦) ثمنه أو (٧) ماغلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

فصل فى ذكر وقاره وهيبته

قدس [الله] روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فهما ، فلقد كان كما قيل : شديد فى غير عنف رقيق فى غير ضعف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس الملك حتى مع أجناده وأصحابه (١٩٣ — ب) إلى غاية لا مزيد عليها . [وكان] يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغار منهم والكبير . ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالعود . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه (٨) ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه

-
- (١) بالأصل : حسنة . (٢) الإضافة من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
 (٣) الإضافة من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) . (٤) حدد ابن الأثير بذكره هذا التاريخ ، السنة التى ألفت فيها كتابه هذا . (٥) بالأصل : صورته (والتصحيح من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
 (٦) هكذا أيضا فى الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) ولعل المراد : وورث ثمنه .
 (٧) بالأصل : من . (والتصحيح من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
 (٨) بالأصل : ويمشى إلى بين يديه ، (وقد أضيف ، المحقق اللفظ : إلى . لائنه زائد) .

أقرب الناس إليه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً ، يقول : إن هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة (١) علينا .

وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا . (١٩٤ - أ) بلغني أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضى الله عنه (٢) ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط ، وسوء أدب الجلوس فيه ما لا أحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين (٣) وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحى ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه . فقال : نزهت نفسى عن مجلسك ، فإننى رأيتك كبعض مجالس السوق ، لا يستمع [فيه] إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمر نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنا [على] رءوسنا الطير ، تعلقونا الهيبة (٤) والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ، أنه (٥) لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فكذا كانت أحواله جميعها - رحمه الله تعالى - مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

(١٩٤ - ب) فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيها ، لا يهملها ولا يمكن أحدا من الناس من إظهار ما يخالف الحق . ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته . وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل . حكى لى أن إنسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان يظهر الزهد والنسك - وقد كثر أتباعه - أظهر شيئاً من التشبيه (٦) ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه وطيف به في البلد جميعه ، ونودى عليه : هذا جزاء من أظهر في

(١) الأصل : المنة . (٢) هو أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ، صاحب « تاريخ دمشق » توفي سنة ٥٧١ هـ . (ترجمته في شذرات الذهب ، ج ٤ / ص ٢٣٩) . (٣) بالأصل : المتحدثين . (والصحيح من ، الروضتين ، ج ١ / ص ١٠) . (٤) بالأصل : للهيبة . (٥) بالأصل : أنهم . (٦) أي أنه من المشبهة . وهى فرقة إسلامية ، تشبه الله بالخلقوات . (انظر : الملل والنحل للشهرستاني) .

الدين البدع . ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها إلى أن مات . ويسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين السكاتب فيه

رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد السكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض (١٩٥ - أ) مصنفاته (١) - فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ، وأثبهم (٢) رأيا وأتقاهم ، وأعد لهم وأعبد لهم ، وأزهدهم وأجهدهم ، وأظهرهم وأظهرهم ، وأقراهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وأنجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا ، وأوضحهم آيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصد لهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيبا ، وإحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبة متملية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقبلة ، وأوامره ممتثلة ، وجده منزه عن الهزل ، ونوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونة ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ، والإنصاف صاف ، والإسعاف عاف ، وأزر الدين قوى ، وظلما الإسلام روى ، وزند النجس وروى ، والشرع متبوع ، والحكم (١٩٥ - ب) مسموع ، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول ، وللتقى شروق ، وما للفسوق سوق ، وهو الذى أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح معاقليها ، واستخلص عقايلها ، وأشاع بها شعار للشرع في جميع الحل والعقد ، والإبرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم ، وبدد ساوكلهم ، وصان الثغور منهم ، وحاماه عنهم ، وأحيا (٣) معالم العلوم الدوارس ، وبنى اللائمة المدارس ، وأنشأ الخانات للصفوية وكثرها (٤) في كل بلد وكثر وقوفها ، وقرر (٥) مهرورها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء [الربط] والخانات ، فضافت (٦) ضيوف الفضائل ، وفاضت

(١) في ، الروضتين (ح / ١ / ص / ١٠) أنه كتاب « البرق الشامى » . وقد أورد أبو شامة في كتابه ، نص ما نقله ابن الأثير هنا ، من عماد السكاتب .
(٢) بالأصل : وأثبهم (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٠) .
(٣) بالأصل : واحى . (٤) بالأصل : وكبرها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٠) .
(٥) بالأصل : وفر . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١١) .
(٦) بالأصل : وضافت . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١١) .

فيوض (١٩٦ - أ) الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ (١) دولته ورجالها . ولو ذكرت ما قال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار أليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد (٢)

الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشجن إلى بلد الحابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايمز الحاراني ، فامتنع فيها ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل إلى مدينة (١٩٦ - ب) الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعه جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية — وهو من أكبر الأمراء النورية — وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، لينزع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين ابن المقدم — وكان هو المرئي للملك الصالح والقائم بأمره — وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسيروا معه إلى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه ، فتمكن (٣) حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له خفر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض (١٩٧ - أ) الأمراء — فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات واملك البلاد . فأشار أمير آخر معه — وهو أكبر أمراءه — يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصاحبة أن تعود . فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا (٤) ﴾ ، ﴿ وكان ذلك في الكتاب مسطورا (٥) ﴾ .

وأما أحوال من بالشام ، فإن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو

(١) بالأصل : بإنشاء .

(٢) بالأصل : بإنشاء .

(٣) بالأصل : فمكن .

(٤) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٥) سورة الإسراء : ٥٨ .

سعد الدين كمشكين — بعض خدمه الخصيان — فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك ، فذهب بركة ودوابه وسار إلى حلب ، فتمسك [سعد الدين] بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك (١) الصالح ، فسار إليها ، فأخرج إليه ابن المقدم عسكرياً فنهوه ، فعاد منهزماً إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ما أخذ [منه] وجهزه وسيره (١٩٧-ب) إلى دمشق [مرة أخرى] — وعلى نفسها تجنى براقش — فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما في مسير الملك الصالح إلى حلب من المصالح ، فأجابوا إلى تسميره فسار إليها (٢) ، فلما فوصلها وصعد إلى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ، ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء « وكان أمر الله قدراً مقدوراً (٣) » ، واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلوا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات [فيها] (٤) ، فراسل الملك الصالح وصالحه على إقرار ما أخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكناً عظيماً يكاد يقارب الحجر عليه .

(١٩٨-أ) في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب

إلى دمشق دار العشق وتملكها من يد ابن (٥) مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بنى الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلواها إليه فلم يجهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ، وكان كبيرهم (٦) في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم — ومن أشبه أباه فما ظلم (٧) — فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الإجابة وسار إلى الشام ،

- (١) بالأصل : للملك . (٢) في السكامل (ح/٩/ص/١٣٠) « ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعملوا أن يسيره (أى مسير الصالح لإسماعيل) إلى حلب أصاح للدولة من مقامه بدمشق ، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فجهزه وسيره » . (٣) سورة الأحزاب : ٣٨ . (٤) الإضافة من ، السكامل (ح/٩/ص/١٣١) . (٥) بالأصل : من يد أولاد مولاه ، وهذا وهم من ابن الأثير أو تصحيف من الناسخ لأن نور الدين لم يكن له غير ولد واحد وهو الصالح إسماعيل .

(٦) بالأصل : كرمهم . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢٣٦) . (٧) يشير ابن الأثير إلى أن والد شمس الدين هو الذى سلم سنجار لنور الدين سنة ٥٤٤ هـ ، فبان بذلك سيده صاحب الموصل . وقد اعتبر ابن الأثير ، شمس الدين خائناً لأنه سلم دمشق لصلاح الدين ، فبان بذلك الصالح لإسماعيل ابن سيده نور الدين .

فلما وصل دمشق ، سلمها إليه من بها من الأمراء ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه . وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ما كان مما قد سمعت به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلاح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على ما بيده (١٩٨ - ب) بعد حروب ومخامرات ، قد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين^(١) قلعة الموصل ووزارة

جلال الدين أبي الحسن^(٢) على

في ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسة ، إستوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه في ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور ، وإطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسابية حيرت العقول . ووضع للناس في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه . وشرع لهم منها شرعاً استحسنوه ، وبذل بذلاً استعظموه . وكان عمره حين ولى الوزارة خمساً وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد — وكان قد زوجه ابنته — فاطم من الحبس وسار إليه ، فبقى بآمد يسيراً مريضاً ، ثم فارقه وتوفى بدنيسر (١٩٩ - أ) سنة أربع وسبعين وخمسة . وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده . وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضى الله عنه .

ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل ، الأمير مجاهد الدين قايماز في ذى الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسة ، ورد إليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض . وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على ولقبه أيضاً زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين إسماعيلاً لا معنى تحته ، ولجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع . ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

(٢) بالأصل : أبا الحسن .

(١) بالأصل : مجاهد بن .

ذكر عصيان [ابن] بوزان وعوده إلى الطاعة

ثم إن الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان (١٩٩ — ب) صاحب شهرزور — وهو في طاعة سيف الدين — أظهر التجنى على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجعل عذره في ترك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما بحكمة القواعد ، وقال : إن مجاهد الدين هو الآن مدبر الدولة (١) والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسي . فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولاً عن نفسه ، وكتب إليه كتاباً ليس مثله في معناه . فلما وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الحضور في الخدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين النورى

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها . فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح ، وطلب منه أن يسلم إليه قلعة حارم — وكانت إقطاعه — فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفظها يأمره بتسليمها (٢٠٠ — أ) إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعلق منكوساً ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

في سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق ، الموصل ، وديار الجزيرة ، وديار بكر ، والشام وغير ذلك من البلاد ، ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار . ومن أعجب (٢) ما رأيت تلك السنة (٣) ، أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرستها شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرستها ، وإذا قد أقبل إنسان تركاني قد أثر عليه (٢٠٠ — ب) الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكي وشكى الجوع ، فأرسلت من اشترى له خبزاً فتأخر إحضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض ، فتغيمت السماء وجاءت نقط (٤) المطر متفرقة ، وضح

(١) بالأصل : للدولة . (٢) بالأصل : عجب . (٣) يقول ابن الأثير في (الكامل ،

٩/ص ١٤٥) أنه كان في الجزيرة في شهر رمضان سنة ٥٧٥ « والناس في أشد ما كانوا غلاء وقنوطاً من الأقطار »

(٤) بالأصل : تنقط .

الناس . ثم جاء الخبز فأكل ذلك التركاني وأخذ الباقي معه ومشى . واشتد المطر ، ودام من تلك الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة . ثم عقب (١) الغلاء وباء شديد كثير . وكان مرض الناس شديداً واحداً ، وهو سرسام ، فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ، ولقى الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير (٢) المؤمنين

المستضىء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله بن المقتدي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه . وأمه أم ولد [أرمنية تدعى غضة (٣)] وكانت خلافته [نحو تسع سنين وسبعة أشهر (٤)] .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

(٢٠١ — أ) وكان عادلاً حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص (٥) في أخذ ما جرت العادة بأخذه . وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله . وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو لا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح . وزر له عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء (٦) إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار [إلى] الحج — وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج — فعبر عضد الدين دجلة في شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، فتقدم إليه بعض العامة ليدعوه له ، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمنعوا عنه أحد ، فتقدم إليه [بعض] الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفما بالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمه الله تعالى . وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكماً نافذاً .

(١) بالأصل : تعقب . (٢) بالأصل : الأمير . (٣) الإضافة من ، الكامل ، (٤) سقط بالأصل . والإضافة من ، الكامل (٥/٩/ص ١٤٨) . (٥) بالأصل : مستقص . واللفظ المثبت هنا يقابل ، اللفظ : مبالغ ، الوارد في ، الكامل (٩/٩/ص ١٢٨) . (٦) هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن ديد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة . (الكامل ، ٩/٩/ص ١٤٣)

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود (٢٠١-ب)

ابن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي رضي الله عنهم . وكان مرضه السل فطال به . ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة للغلاء الحادث في البلاد وخرج سيف الدين في موكبه ، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخرّبوا أبوابها ودخلوها ونهبوها ، وأراقوا الخمر ، وكسروا الأواني وعملوا ما لا يحل ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان ، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق الخمر ، ولما رأى فعل العامة نهاهم عنه فلم يسمعوا منه ، فلما شكى [الخمارون (١)] منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق (٢٠٢ - أ) لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله لا غطيته حتى ينتقم الله لي من ظلمي ، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدردار المباشر لأذاه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي . وكان عمره نحو ثلاثين سنة . وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمايل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق . وكان عاقلاً ، وقوراً ، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس . عفيفاً ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة . وكان غيوراً شديد الغيرة ، لم يترك أحداً من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار . وكان لا يحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد (٢٠٢-ب)

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه [وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة (١)] تخاف [على الدولة (١)] من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته . وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين [مسعود (١)] من الإذعان والإجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولا والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطى ابنه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى المولى عز الدين ليبقى لهما [ذلك (٢)] ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه . فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدير للدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا ، فدخلها وجلس للعزاء . وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجرأته وحدة كانت فيه . وكان لا يلتفت إلى أخيه (٢٠٣ - أ) سيف الدين إذا أراد أمرا ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقا بالرعية ، محسنا إليهم ، قريبا منهم . فكان في ذلك كما روى ، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر ، فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولي عمر ، رأى الناس من رفته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب .

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين

الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهی (٣)

في [رجب (٤)] من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

(١) الإضافات من ، الكامل (٩/ص/١٥٠) . (٢) مكان هذا اللفظ ، بالأصل : مجاهد . (والتصحيح من ، الروضتين ، ٢/ص/١٨) وفي الكامل (٩/ص/١٥٠) : « ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك » . وأن سيف الدين أعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلمة عقر الحميدة لولده الصغير ناصر الدين كسك . (٣) نسبة إلى علاقة قسيم الدولة آقسنقر بالسلطان ملكشاه السجلوقي . (أنظر ماسبق ، ص/٤) (٤) بياض بالأصل ، والإضافة من ، الكامل (٩/ص/١٥٣) .

ولما اشتد مرضه (٢٠٣ — ب) وصف له الأطباء شرب الخمر تدوايها ، فقال : لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء . وكان عنده علاء الدين الكاشاني الفقيه الخنفي بمنزلة كبيرة ، [وكان] يعتقد فيه اعتقاداً حسناً ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلى أيؤخره شرب الخمر ، قال : لا . قال : والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمة على . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين رضى الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه . فقال بعضهم : إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همدان إلى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعهد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أهلك وزوج أختك [وهو أيضا عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الاعراق وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها (١)] فقال : إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما يبدى ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين [فإن ملكها صلاح الدين (٢)] فلا (٢٠٤ — أ) يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين ، أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله . فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا (٣) صحته (٤) ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم . فلما توفي ، أرسل دزدار حلب — وهو شاذ بخت — وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض ، فلقى القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفرات وأرسل إلى أتابك [عز الدين] يعرفه الحال ، ويشير بتعجيل الحركة ، وأقام على الفرات ينتظره . فسار أتابك مجداً ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ إلى حلب ودخلها (٥) ، وكان يوماً مشهوداً .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — بمدينة منبج ، فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار (٢٠٤ — ب) أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطعموه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل ، وقال : بيننا يمين فلا نغدر به (٦) ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها .

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/٢/ص ٢١) . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/٢/ص ٢٢) .

(٣) بالأصل : وعلموه . (٤) بالأصل : صحيته .

(٥) في ، الكامل (ح/٩/ص ١٥٤) أنه دخلها في العشرين من شعبان من السنة . (٦) أنظر ، الكامل

(ح/٩/ص ١٣٧ حوادث سنة ٥٧١) تحت عنوان : « ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها » .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجان ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال : إن سلمتم إلى حلب ، وإلا سلمت أنا سنجان إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة (١) بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمسكه من الدولة وكثره عساكره وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجان وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيسر من العود إلى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه (٢٠٥ — أ) عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفاً على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أو ثقتهم (٢) في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد إلى حلب وحصرها ، فسلمها إليه عماد الدين وأخذ سنجان والخابور ونصيبين عوضاً عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضة .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز

وما تبعه من الوهن (٣)

في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضى الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو (٢٠٥ — ب) حينئذ نائبه في بلاده ، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة (٤) صاحبه . وكان الذى أشار به عز الدين محمود زلف دار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير — الذى كان أبوه صاحب بلد الغراف — وهما من أكابر الأمراء — فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا (٥) ، وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين [سنجر شاه] بن سيف الدين [غازى بن مودود] صغيراً ، والحكم فيها إلى مجاهد الدين ، وله أيضاً قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين على إربل ، وكان فيها لا حكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله

(١) الجماعة ، هم أمراء عز الدين مسعود . (٢) بالأصل : انقهم . (٣) جاء العنوان في «النس» مضطرباً ، هكذا : فصل في سبب قضية الذى جرت في ذكر القبض على مجاهد بن قايماز وما تبعه من الوهن . (٤) بالأصل : نصرة . (والتصحيح من الروضتين ٢/ص ٥٤) . (٥) دقوقا : في (ياقوت) : مدينة بين إربل وبغداد .

عسكرا حصر دقوقا فلكوها ، ولم يحصل للمولى عز الدين من جميع ما كان ييد مجاهد الدين إلا شهرزور ، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل . وبقي مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعادته إلى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذي (٢٠٦ — أ) أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته . وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ما أشارا به من قبض مجاهد الدين . وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من إزالة بيشكار (١) مدبرها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه ، ويكون الثاني — وإن كان كافيا — بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الإنسان ولا ما يوافقه ويؤذيه ، فإلى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح . قال .

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سار المولى السعيد عز الدين — قدس الله روحه — إلى جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها . وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيئ السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته (٢٠٦ — ب) ، مساعدا للأعداء عليه ، وينقل (٢) عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، إلى غير ذلك من الأسباب التي بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وأدب ، فبقي كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من إصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله أدركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئا لا يبالي به المحاصر ، فبقي كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما كان يبدو منه . فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا أنه تغمد إساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها (٢٠٧ — أ) ، وأقره على بلده وعاد عنه إلى الموصل ، فماد معز الدين إلى حالته الأولى فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعني عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك أنني فعلت هذا شرها على ما بيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه (٣) .

(١) البيشكار : كلمة فارسية لها أكثر من معنى ، مثل : معاون ، ناظر ، طالب ، عاقل ، وزير . والمعنى الأخير ، هو المقصود في « النص » . (المعجم في اللغة الفارسية) .
(٢) : بالأصل : ينتقل .
(٣) ذكر ابن الأثير في ، الكامل ، سببا آخر لحصار عز الدين مسعود جزيرة ابن عمر ، يختلف عما هو وارد هنا .
(أنظر ح/٩/ص/٢١١)

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين [مسعود]

رضى الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضى الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعل ، فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات (١) رحمة الله عليه ، بالإسراع في الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايمار: ليس هذا برأى أننا نترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ونسیر ، إنما الرأى أننا نراسلهم ونستميلهم (٢٠٧-ب) ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون . فقال أخى : إن كنتم تفعلون ما يشيرون به عليكم ويروونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون إلا هذا (٢) ، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأى أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبدل لهم الدين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفاً أن يقصد ولايته ، لا سيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الإنسان [أن] يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم ، وإن كان العكس أحجم ، فظهرت أمارات الغيظ (٣) على مجاهد الدين ، فسكت أخى لأنه كان هو المخدم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم . وتابع المرحوم عز الدين - قدس الله روحه - قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يرأس المذكورين ، فلم (٢٠٨ - أ) ينتظم بيده وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما انفقا على قواعد استقرت بينهما ، فإلى أن انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبى بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحصص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل إلى نصيبين ، وقد ابتدأ به إسهال بنزيف (٤) ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن (٥) من شبتخان

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الفيضاني . توفي سنة ٦٠٦ . (ترجمته في : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٢٢) وترجم ابن الأثير لأخيه ترجمة مختصرة ، في « الكامل » (ح ٩ / ص ٣٠٢) .
(٢) بالأصل : هكذا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ٢ / ص ٢٢٧) . (٣) بالأصل : الغليظ .
(٤) بالأصل : قريب . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ٢ / ص ٢٢٧) . (٥) تل موزن : في (ياقوت) : يفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاي وآخره نون . بلد قديم بين رأس عين وسروج ، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال .

يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والركة وما معها بيده على سبيل الإقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه إلى ذلك ، وقوى المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال (٢٠٨ - ب) ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل دينسر رأى ضعفاً شديداً ، فأحضر أخى وكتب وصيته ، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالإسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذا كراً الله تعالى ، حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً (١) ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد [أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله (٢)] وأشهد أن الموت حق [وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق (٣)] وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ويقول لمن [عنده (٤)] مخاطبه : إشهد لي بهذا عند الله تعالى ، ثم يعود إلى حديثه . وأحضر عنده من يقرأ (٢٠٩ - أ) القرآن ، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رضى الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجيفة لم يصبرهم مثلاً ، وأظهروا من الغم والحزن ما لا كان يظنه أحد . ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (٥) . وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر . وكان أسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدى ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة إذا مشى ، فإذا ركب لم يعله (٦) أحد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضى الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الإحسان إلى الناس ، يتعهدهم (٧) بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لاسيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلى محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين على بن الشكرى — وكان رجلاً (٢٠٩ - ب) كبيراً له خدمة سالفة — ، فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضاً ، أنه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل

(١) : بالأصل : مرا . (٢) : بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٣) : بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) . (٤) : الإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٥) : بياض بالأصل . (٦) : بالأصل : يلميه . (٧) : يتعهدهم .

هو في المغرقة (١) في السكشك الذي بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصلين معه ، أخى مجد الدين رحمه الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة (٢) أخى بزواية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضى الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخى وقال له : أرى خيمتك ههنا . قال : لأنك رسمت أن لا يدخل أحد . قال : إلا أنت ، فإن والدك أثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك أنه قد اشتاقتك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولا تجيء إلينا إلى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص (٢١٠ - أ) له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والإقامة عنده . فانظر إلى هذا الرفق واللطف الذى لا يفعله الإنسان إلا مع أهله لا سيما المملوك .

وكان رحمه الله تعالى حياً كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحداً قط إلا وهو مطرق . فمن حياته (٣) أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته ، وقال : لى مهم أريد [أن] أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغنى إننى في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجبت من مولانا كيف يسمح بمثلى ويرسلنى ويبعدنى عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلى ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو تحلك وارتفاع قدرك . فلما خرج من عنده أظهر الإنكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدبر المنحوس يقول لى هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة (٢١٠ - ب) جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأديبه وإقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه . فقال : إستحييت منه ، فقالوا : أفلا تؤدبه (٤) وتعرفه ذنبه . فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله رفيقاً رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته . حكى عنه أخى مجد الدين رحمه الله تعالى ، أنه ركب يوماً فقال له ولمن معه : إننى هذه الليلة ما نمت إلى سحر . فقالوا له : وما سبب ذلك ، قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض — وذكر إنساناً بائعاً (٥) بالموصل — فلما كان الليلة سمعت صوت مأتم ، فظننت أنه توفى فضاقت صدرى — وكان بلغنى أنه ليس لأبويه غيره — فشق ذلك علىّ ، وقمت من الفراش إلى أطراف السطح ، لعلى أعلم من هو الميت ، فطال الأمر إلى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسى ، فأرسلت خادماً وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر أنه شخص لم أعرفه ، فحينئذ (٢١١ - أ) نمت . فاعجب لهذه الشفقة والرفقة على رجل من الرعية ليست له صحة ولا خدمة .

(١) هكذا بالأصل : ولعلها : الغرفة . (٢) بالأصل : خيمته . (٣) بالأصل : حياؤه . (٤) بالأصل : فلا تؤدونه . (٥) بالأصل : بيما .

قال . وكان رحمة الله عليه ديناً خيراً ، قد ابتنى في داره مسجداً فيخرج إليه في الليل ويصلي فيه أوراداً كانت له ، ولبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بها ، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقه التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور ، وكان من الصالحين .

وكان رضى الله عنه يقوى يد من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . كان بالموصل رجل من الفقهاء الأخيار من باجباري (١) اسمه حرب ، فكان كثيراً ما (٢) يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاجتاز يوماً على الجسر فلقي دواباً تحمل الخبز لإنسان هو أقرب الناس إلى المرحوم عز الدين وأخصهم به ، فألقاه الفقير عن الدواب وأراقه بعد أن ضرب ، فبلغ الخبر إليه ، فأحضر الفقير وأمره بإزالة جميع ما يراه من المنكرات وأطلق يده ، وأنكر على ذلك الأمير وأمره (٢١١-ب) بإحضار غلمانة الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد أن تركهم .

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالإنصاف (٣) من أقرب الناس إليه وأعظمهم منزلة عنده ، ويقوى يد صاحب الحق . فمن ذلك أنه كان بالموصل إنسان من أعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى أمر الخاتون والددة المرحوم رضى الله عنه ، وله بها أعظم جاه وأعلى منزلة ، ولها به أتم عناية وأكثر حماية لتقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية لإنسان عجمي مقيم بالموصل ، فأخذ شيئاً من أرض قرية العجمي وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء إلى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بداره ليعظ عنده ، وأمر أن لا يحجب أحد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمي وصاح واستغاث وبیده رقعة يشكو بها حاله ، فأمره السعيد عز الدين بالجلوس إلى أن يفرغ المجلس ، فلما فرغ جلس ، وأحضر القاضي وأمره بالحكم بمقتضى الشريعة (٢١٢-أ) المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر [عز الدين] الحاكم بالإسجال له والإثبات لحقه والإشهاد عليه به ، وأرسل معه أوصل حقه [إليه] وأسخط والدته في اتباع الحق .

وكان رضى الله عنه حليماً ، فمن حله ، أن إنساناً فقيراً من أهل الموصل من أصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف ابن أيوب الموصل [محاصراً لها (٤)] اجتمع به وأكثر التردد إليه وأخذ صلته ، وقال : ما تحتمل الملوك بغضه إلى أحد . فلما عاد صلاح الدين ، أحضر المرحوم عز الدين هذا الفقير وأنكر عليه ، وأمر بتخريب زاويته ، ثم أحضره بعد أيام واعتذر إليه واستحله ، وأعطاه مائة دينار وأمره بتجديد زاويته ، وقال : إن أردت شيئاً (٥) آخر أنفذه (٦)

(١) نسبة إلى قرية «باجبار» . وفي (ياقوت) : هي قرية في شرق مدينة الموصل على نحو ميل . وهي كبيرة عامرة فيها سوق . (٢) بالأصل : مما . (٣) بالأصل : بالانصاف . (٤) حاصر صلاح الدين الموصل ثلاث مرات . الأولى في سنة ٥٧٨ هـ ، والثانية والثالثة في سنة ٥٨١ هـ . (٥) بالأصل : شيء . (٦) بالأصل : انفذ .

لك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكلما فرغ بالنفقة أنفذ له شيئاً آخر إلى أن فرغت . وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد (٢١٢ - ب) إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم .

قال . وهو الذي ابنتى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حسنة ، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والأعياد ، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئاً كثيراً .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل — وهو بين باب كندة وباب العراق — ولم يكن هناك باب فجاء حسناً ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين

ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم — قدس الله روحه — من تل موزن مريضاً وأنه كتب وصيته بدنيسر . وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك . وكان الوصى فيهاد مجاهد (٢١٣ - أ) الدين قائماً ، رحمه الله تعالى . فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضاً والدته الخاتون في المعنى وبالغت ، لأن شرف الدين أيضاً ولدها ، وجعما لهما جمعاً وجنداً ، وأظهر شرف الدين أن أحداً لا يقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء ظنه حقاً ﴿ يريدون ليطلقوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (١) ﴾ وقال شرف الدين : إن ملكني أخى بعده ، وإلا أثرت فتنة في البلد وأخذته قهراً ، فإن عجزت سرت إلى الملك العادل بن أيوب . وأرعد وأبرق . وكان عمر المولى المرحوم نور الدين — قدس الله روحه — حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو ينظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد . وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلمذا قوى جنان شرف الدين ظناً منه أن أخاه يملكه إذ هو كبير [البيت (٢)] ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه (٢١٣ - ب) فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف أن

(١) سورة الصف : ٨

(٢) الإضافة من ابن واصل (ح/١/ص/٢٣) .

أموت وليس لكم ملكٌ مستقل بالملك والعدل في البلاد ، فيحدث ضرر لا يمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل إلى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد (١) أخيه ووعدته الزيادة [في الإقطاع] فلم يجب إلى ذلك وتهدد وقال . فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس . ثم إن المرحوم نور الدين ، رضى الله عنه ، أرسل إلى أخى مجد الدين - رحمه الله - مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعدته الزيادة والإقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتماً ، فرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه — وكان أخى هو الذى يصدر عن رأيه على ما شاهده الناس — وأما ما رسمت به فأنا مشدود الوسط فيه (٢١٤ - أ) ، ولا يشكرنى المولى على هذا ، فإننى أفضله خدمة لوالدك الذى أنا فى خدمته إذ هو هكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبد منى إلا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث إرادة والدك موافقة لإرادتك ، فانا (٢) خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأما ما وعدت به من إنعام وزيادة مرسوم ، فليست لى رغبة فى شيء من هذا ، فلى من نعمتكم ما يفضل عنى . ثم ركب من وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرآه مفكراً ، فشكى إليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة ، والمولى عز الدين يريد ولده ، والعدل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها . فبينهما فى الحديث ، وإذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما أقول لك لتحلف الناس لولدى وأنت (٣) تهمل الأمر والعدو بالقرب منكم واتم بغير سلطان ، وأنا فما أظن أننى أعيش يوماً آخر فما تنتظر . فتضجر مجاهد (٢١٤ - ب) الدين ، وأعاد ما كان يقوله لأخى من الشكوى . فقال له أخى : أنت تفعل هذا جميعه بنفسك والدولة (٤) معك ولو شئت لم يكن منه شيء ، والرأى أن تأمر بإحضار الأمراء ، وأرباب المناصب ، والمقدمين ، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فإذا فعلت هذا ، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه ما يخالف هذا ، أخذناه قهراً وولكلنا به ، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمن لنور الدين ، ولا يركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطاناً ، لا نزال مع شرف الدين مصدعين . فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم أخى فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التى كتبها أخى - رحمه الله - لهم ، وحلف مشايخ الحال وعرفاء (٥) الأسواق ، فسمع من جمعهم شرف الدين نفاقوا وتفرقوا عنه ، فأرسل إلى مجاهد الدين يعاتبه (٦) حيث حلف الناس قبله ، وقال : أردت أن أخدم المولى نور الدين وأتولى

(٣) بالأصل : وان .

(٢) بالأصل : فاذا .

(١) بالأصل : لولده .

(٥) بالأصل : عرف .

(٤) بالأصل : وبالدولة .

(٦) بالأصل : يعاتب .

القيام بأمره (٢١٥ — أ) ثم إن مجاهد الدين ركّب السعيد نور الدين من الغد في موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى مجاهد الدين في ركابه راجلاً قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضى الله عنه وأرضاه . واستقر السعيد نور الدين — قدس الله روحه — ولم يتغير بالناس حال ، ورعى هذه الخدمة لأخى رحمه الله تعالى فكان عنده واحد دولته ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك إلى أن فرق الموت بينهما رضى الله عنهما .

ذكره وفاة عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود

في [المحرم (١)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكى ابن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر رضى الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره (٢) . وولى بعده ابنه (٢١٥ — ب) قطب الدين محمد ، وتولى تدبير (٣) دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرئس ، وكان ديناً خيراً ، إلا أنه كان شديد التعصب (٤) على مذهب الشافعى رضى الله عنه ، يكثرذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم . فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية (٥) بسنجان ، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحنفين (٦) من أولاده دون الشافعيين ، وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في [جماد الأولى (٧)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين أرسلان شاه إلى مدينة نصيبين — وهى لقطب الدين [محمد (٨)] ابن عمه عماد الدين — فملكها . وسبب ذلك أن عمه عماد الدين زنكى ، رحمه الله ، كان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهى تجاور (٩) ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر إلى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم بخدمة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته (٢١٦ — أ) وإبائه ، يخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه ما يوجب اختلافاً بينه وبين عمه ، فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا العمل ، وقال: لا شك أن النواب قد

(١) بياض بالأصل . والإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٣٩) . (٢) بياض بالأصل .

(٣) بالأصل : بتدبير . (٤) بالأصل : الغضب . (٥) بياض بالأصل ، ح/٩/ص/٢٣٩ .

(٦) بالأصل : الحنفين . (٧) بياض بالأصل . والإضافة من ،

الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) . (٨) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .

(٩) بالأصل : وهو مجاور . (١٠) والتصحیح من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠)

فعلوا هذا بغير أمره . فأعاد الجواب : [إنهم لم يفعلوا] [إلا] ما أمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال نصيبين ، ولم يُعدها . فرد مجاهد الدين برسالة (١) ثانية يقول له : متساوى (٢) هذه وأضعافها أن تخرج ولدك نور الدين عن يدك ، فإنه إلى الآن ما خالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلني أنه لا يصبر عليها ، وليس هو مثل والده [وأخاف (٣)] [إن علم] [أن] [يخرج الأمر عن يدي ولا أقدر أمنعه] . فلم يلتفت عماد الدين [إليه] فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد نور الدين ، فغضب لذلك وأنكر [عليه] حيث لم يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعه ، ثم أحضر أميرا من مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري [وهو] من خدم الشهداء رضى الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغني كذا وكذا ، وأن (٢١٦ - ب) مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو أنك أرسلت تطلب جميع الولايات وغيرها لكان أحب الأشياء إليّ ، وأما أن (٤) تأخذ منى قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجاني فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولا واحداً .

فرضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاض من ذلك وأمتنع من الإجابة . فقال الرسول من عنده نصحاله ، وأشار عليه بالمصالحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف الأتابكي مقبولا ، فلم يصغ إلى قوله ، وقال ما جرت العادة أن تقوله المرضى . فعاد الرسول إلى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية الحال ، فأمره أن يكتم ما يغيظ نور الدين ، فلم يفعل وحكى للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير إلى نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه . فتوفي عماد الدين والحال على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم ما كان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل (٢١٧ - أ) إلى نصيبين ، فلما سمع قطب الدين [بذلك] سار عن سنجار في عساكره فسبقه إليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين [من] [النهر] ، عبر الأمير نحر الدين عبد الله بن عيسى المهراني النهر (٥) — وهو من أكبر الأمراء النورية — وقاتل من يازائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير نحر الدين عبد الله ، واحتسمى هو ونائبه مجاهد الدين يرتقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى ديار بكر ، ثم منها إلى حران ،

(١) بالأصل : رسالة . (٢) بالأصل : متساوى . (٣) الإضافة من ، الكامل (٢٤٠/ص) . (٤) بالأصل : بان . (٥) بالأصل : بالنهر .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها (١) — وكان بدمشق — وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد إليهم نصيبين . وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، ففرض كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين (٢١٧ — ب) وقد تضعضع العسكر بعود الأمراء وكثره الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل [في رمضان (٢)] لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصله ، منهم عز الدين جورديك ، ونفر الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم المهرانيان وظهير الدين (يولي (٣)) بن بلنكري الدكري ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير من ذكرنا . وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين إلى الموصل ، قصد الملك العادل بن أيوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد نور الدين على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة مجاهد الدين (٤) قايماز

رحمه الله تعالى (٢١٨ — أ)

في [ربيع الأول (٥)] من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الأتابكية النورية . وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه على ما ذكرناه ، وبقي إلى الآن . وكان أصله من القرادى من أعمال شبختان وأخذ هو منها طفلاً . وكان عاقلاً ، ديناً ، خيراً ، فاضلاً ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه . ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً ، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة . وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئاً من شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر إلى غير ذلك . وكان له ورديصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

(١) بالأصل : وغيره .
 (٢) بالإضافة من ، الكامل (٢٤٠ / ص / ٩ / ح) .
 (٣) بالإضافة من ،
 (٤) بالأصل : مجاهد بن .
 (٥) بياض بالأصل . والإضافة من ، الكامل (٢٤٨ / ص / ٩ / ح) .

(٢١٨ - ب) وبني عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح . ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن ما قصدناه من الاختصار .

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفي الله عنه [بماردين]

في سنة خمس وتسعين وخمسمائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين — قدس الله روحه — إلى ماردين لإزاحة العسكر العادلي عنها وإبقائها على صاحبها حسام الدين [يواق أرسلان ابن إيلغازي بن أرتق (١)] ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً ، فعدمت الأقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها . فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك (٢١٩ - أ) العادل على ماردين . فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتهم والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعهم وعسكره . إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيراً ويكفي في حصرهم .

ثم إن الملك الأفضل أرسل إلى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر غازماً على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر ، سار عن ماردين جريدة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين أواخر شعبان (٢١٩ - ب) ، ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه أيضاً معز الدين ابن عمه سيف الدين — وهو صاحب جزيرة ابن عمر — فساروا ، فلما وصلوا إلى ماردين نزلوا أسفل جبالها ، وشرع نور الدين بجمع الرجال ليزحف إلى ربض ماردين ويقاوم العسكر العادلي (٢) من تحت ويقاومهم أهل ماردين من فوق ، لعلمهم ينظفرون بهم ويزيلونهم قهراً ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل إلى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد أنه يعجزه شيء . فاتفق أن العسكر

العادلى نزل عن الربض إلى قتال العسكر (١) النورى ، ونزل (٢) الرجالة فى الربض ليمنعوا أهل القلعة من النزول ، فجاء أمر لم يكن فى الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلى على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك أحداً ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلى واصطففت العساكر ، أُلجأت (٢٢٠ — أ) قطب الدين الضرورة والرحمة إلى أن وقف فى شعب بجبل ماردین ، ليس إليه طريق للعسكر العادلى ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النورى لينهزم ، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، والبقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين فى القلب وإلى جانبه (٣) أخى مجد الدين على بغلة ، فقال له : فى مثل هذا اليوم تركب بغلة . فقال : الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلى على القلب النورى فزحزحوا عن موقفهم قليلاً ، فقال أخى للسعيد نور الدين : تقدم قليلاً ليراك الناس فيتقدموا وتشدد أنفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخى به إلا وقد حمل ، قال أخى : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعنى الندم ، فحين رآه الناس قد حمل ألقوا نفوسهم على [العساكر] العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين (٢٢٠ — ب) فى الجبل إلى الربض ، وحمل الأسرى إلى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميراً (٤) من أعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام إليه واعتنقه ، وأخذ شيئاً (٥) كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن إلى المأسورين جميعهم ووعدهم بالإطلاق إذا فرغوا من أمر ماردین .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل رحلوا عن ماردین ، فتقطعوا فى ذلك الجبل وساروا نحو (٦) ميفارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعاً لأنيس بها ، وأتى الخبر إلى السعيد نور الدين رضى الله عنه ، فقال له بعض أصحابه : إصعد إلى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملككم صفواً عفواً ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد . فقال : حاشا لله أن يتحدث الناس عنى أن ناساً اعتضدوا بى واستنصرونى فأعذر بهم . ثم قال لأخى مجد الدين وهو عنده : ماتقول . فقال : الغادرون كثير (٢٢١ — أ) وقد أودعت الكتب غدراتهم ففى باقية إلى يوم القيامة ، وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس أنه قدر على مثل ماردین وتركها وفاء وإنعاماً وإحساناً . قال ، فقال لى : أرسل إلى صاحب ماردین ليرسل نوابه إلى ولايته وقراباه — وكان قد أقطعها للعساكر التى معه وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها — قال : فقلت له : إن أصحابنا لم يأخذوا درهما واحداً لتأخر إدراك الغلات ، فلو بقى الإقطاع بأيديهم

(٣) بالأصل : الجانبه .

(٢) بالأصل : وترك .

(١) بالأصل : عسكر .

(٦) بالأصل : نحوا .

(٥) بالأصل : شيء .

(٤) بالأصل : أمير .

إلى أن يأخذوا منها (١) ما ينفقون (٢) منه (٣) على بيكارهم (٤) لكان مصلحة . فقال: لانكدر إنعامنا وإحساننا إليهم ، ونحن نكفي أصحابنا . قال : فأرسلت إلى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وأرسل اليها النواب . وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، ففرض وعاد إلى الموصل ، ولوسار اليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين (٢٢١ - ب) لعلهم أن السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفاً منه .

ذكر عوده رضى الله عنه إلى بلاد

العادل والصلاح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضى الله عنه عن ماردين مريضاً ، فلما وصل إلى الموصل بقى أياماً ثم عوفى ، فلما قوى ، عاد وجمع عسكره وسار إلى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده إليه لحفظ (٥) البلاد من نور الدين ، فلما وصل إلى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسول من معه من أكابر الأمراء يرغبون في الصلح ويشيرون به ، فاقتضت المصلحة إجابتهم إلى ما طلبوا فصالحهم على ما بأيديهم ، وضمنوا [له] أن يحلفوا له الملك العادل وحلفوا له على ذلك ، فأرسل إلى العادل بالذى تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده خلف له (٢٢٢ - أ) واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين إلى الموصل [في ذى القعدة من السنة (٦)] .

في ذكر حصر العادل مدينة (٧) سنجار وما فعله المولى نور الدين

في حفظها وضبطها

في سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحصرها وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين — وهو

(١) بالأصل : منهم . (٢) بالأصل : ينفقون . (٣) بالأصل : به .

(٤) البيكار : لفظ فارسي ، يرسم هكذا : بيكار . وله أكثر من معنى ، منها : الحرب ، وهو المعنى المقصود هنا .

(٥) بالأصل : يحفظ . (٦) الإضافة من الكامل . (أنظر ، المعجم في اللغة الفارسية) .

(٧) بالأصل : الامدينه . (٨/٢٥٥) .

ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه — فأرسل قطب الدين ولده إلى الخدمة النورية مستجيراً ومستنصراً ، ثم سار إلى إربل ، إلى الملك المعظم مظفر الدين [كوكبرى (١)] في المعنى ، فأرسل إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان إبقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الإجابة ، وذكر لصاحبها ذنوباً تقتضى قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهرزور وأعمالها ، واجتمعوا بالموصل بعد طول افتراق ، واتفقا بعد (٢٢٢ — ب) اختلاف ، ووثق (٢) كل واحد منهما بصاحبه وثوقاً لا مزيد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت (٣) في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير إلى سنجار ولقاء العادل ومحاربتة ، وإنما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أعز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك أستاذ الدار العزيزة في إصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدرًا لنور الدين عند أمير المؤمنين ، إذ ينفذ مثل أستاذ داره العزيزة ليسعى في أغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : أى الطائفتين انهزمت ، كان وهذا عظيماً في الإسلام لا يجبر وخرقاً لا يرقع . فسمعوا وأطاعوا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصالح وإبقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها (٤) .

(٢٢٣ — أ) ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين

قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين — قدس الله روحه ونور ضريحه — في (٥) رجب من سنة سبع وستائة . وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذى توفي به ، فقليل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد .

وكان رضى الله عنه قوى النفس فى مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته إلى أن فارق الدنيا . ولما اشتد مرضه انحدر في شبابة إلى الحامة (٦) المعروفة بعين القيامة فلم يجد بها راحة ،

(١) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٣٠١) . (٢) بالأصل : رونق . (٣) بالأصل : بيت . (٤) ذكر ابن الأثير في الكامل ، (ح/٩/ص/٣٠١) أن سبب حصار الملك العادل سنجار . أن نور الدين اتفق مع العادل على الاستيلاء على بلاد كل من قطب الدين صاحب سنجار ومعز الدين محمود صاحب جزيرة ابن عمر ، على أن تكون بلاد قطب الدين لئادل ، وبلاد معز الدين لنور الدين ، فسار العادل إلى بلاد الجزيرة واستولى على الحابور ، ولما حاصر سنجار ، خاف نور الدين منه فنقض الاتفاق معه ، وانضم إلى قطب الدين لتخليص سنجار منه . ورواية الكامل أوسع مما هي هنا في « النص » . (٥) بالأصل : من . (٦) الحامة : في (ياقوت) : الحمة . عين حارة بين اسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة . وتقصّد من النواحي البعيدة ليستشفى بمائها .

فأصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فمكتم موته من طبيب (١) وملاح وخادم إلى أن وصل إلى البلد ، فأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذى كان فيه مريضاً ، ووكل ببابه من يمنع من الدخول إليه ، وأمضى فى نهاره ذلك ما كان وصاه (٢٢٣ - ب) به فى طريقه إلى أن توفى ، فلما فرغ من جميعه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل ، وقام فى حفظ البلد المقام المرضى ، بحيث أن أهل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل إلى الدار السلطانية ، فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم ينفعهم اشتراكهم فى المصيبة به ، لأنه كان رفيقاً بهم ، مشفقاً عليهم ، ناظراً فى مصالحتهم . وأكثر الشعراء رثاءه (٢) وتأبينه (٣) .

قال فيه البليغ ما قال ذو العى وكل بوصفه منطق
وكذاك العدو لم يعد أن قال جميلاً كما يقول الصديق

ولما توفى كان عمره [ثمانيا وثلاثين سنة (٤)] . وكان ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً ، وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرّة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذكر شىء من سيرته

كان رضى الله عنه بعيد الهمة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق (٢٢٤ - أ) حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم وينبسط معهم ، كثير الإحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أننى أعلم أنه بقى عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمه إلى أن قال : ابتلاه الله تعالى بمخالفتى ، إن أحببت إنساناً أبغضه ، وإن قدمته أخره ، وإن أعطيته حرمة . ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئاً من ذلك .

وكان رضى الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم . ولقد قال يوماً من يثق إليه : ما أجمل هؤلاء نوابى ، يخدمنى أحدهم وليس له شىء وعليه دين ، فما ينقضى عليه سنة حتى يوفى دينه ويعمر الدور والأملاك ، ويرسل إلى يطلب أن يشتري منى قرايا ، ولو أن لهم عقلاً دوخر (٥) الأموال واشتروا بها أملاكاً من غيرى ، فإنهم يعلمون أننى أعرف أحوالهم

(١) بالأصل : طبيب . (٢) بالأصل : مراسه (بدون تنقيط ، ويمكن قراءة اللفظ : مرأيه) . واللفظ الذى اختاره الخقق أوفق للعبارة . (٣) اللفظ بدون تنقيط بالأصل . (٤) ما بين الحاصرتين بياض بالأصل . وهو تحديد ترجيحى على ضوء ما هو وارد فى « النص » (ص/١٨٩) أن نور الدين ولى الموصل وعمره نحو عشرين سنة . (٥) هكذا بالأصل . ولعل اللفظ تحريفاً للفظ : ادخروا .

قديمًا وحديثًا . ومع هذه المعرفة فكان يغضى عنهم كأنه لا يعلم بشيء من أمرهم .

وكان — قدس الله روحه — كثير الإحسان إلى رعيته (٢٢٤ — ب) والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الإنفعال للخير . حكى لى أخى مجد الدين رحمه الله تعالى — وكان [على] غاية الخبر به — قال : ما قلت له فى شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك من الصلاح فقال لا . وحكى لى أيضاً عنه قال : كنت معه فى بعض أسفاره ، وكان له سردار الموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه أن ولد السردار قد سرق من داره شيئاً ، فأرسل إلى ليلا يأمرنى أن أكتب كتاباً إلى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إننى ما أكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ما عندى فى هذا ، فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا أمتنع من ذلك ، فاستدعانى ، فحضرت عنده فقال لى : لم لا تكتب الكتاب (١) فقلت له : عادتى معكم أنى لا أكتب إلا ما تجيزه (٢) الشريعة . فقال لى : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده . فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز (٣) لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفاقه برعيته (٢٢٥ — أ) وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديمًا فى صباه وأوجب عليه حقاً ، وكان يؤثر أن يقدمه ويقبض إليه أمراً ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع أهلها سيرة فيها بعض الحشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئاً مما يفعله هذا السائب فعزله ، وبقي مدة معزولاً ، ثم حمله (٤) طول خدمته له على أن ولاه غيرها ثانية (٥) ووصاه بالإحسان والرفق . فغلبت (٦) عليه عادته ، فعزله ثانياً ميلاً فى هوى رعيته واستماله لقلوبهم وحفظاً لهم . ومن ذلك [أيضاً] أنه مرض مرضاً شديداً غير مرضه الذى توفى فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم [إلى] باب داره محبة له فبطلت معاشهم ، فكان يتكلف فى بعض الأوقات القعود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه . ففى بعض الأيام حضر أخى مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخى استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا . فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه (٢٢٥ — ب) بالقعود لهم والانتقال إلى مكان فسيح لى (٧) يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلباً لرضاهم ، إذ علم أنهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره وهيبته فى حركاته وسكناته وملبوسه فإنه النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه (٨) به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والألوان التى يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب

(١) بالأصل : كتابا . (والتصحيح من ، ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥) . (٢) بالأصل : لا تجبره .
(والتصحيح من ، ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥) . (٣) بالأصل : خزن . (والتصحيح ، من ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥) . (٤) بالأصل : حمل . (٥) بالأصل : ثابته . (٦) بالأصل : غلب .
(٧) بالأصل : لسكن أن . (٨) بالأصل : نعيه .

ولا غيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه .

وأما شجاعته ، فالذى ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس وزيادة الإقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهى إنه رضى الله عنه [لما] عزم على قصد بلاد العادل مما يليه ، وكذلك أيضاً عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم (٢٢٦ - أ) يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكون فى الوسط ليبادر الى من يسبق إلى التقدم ، فاتفق أن السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يرأسه سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران إلى دمشق ، فقبل له لو أقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيداً . فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذى يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه فليس بشيء ، وسار ولم يقيم . فكان كما قال ، ليس فيهم من يحرك [ساكناً] . ومن ذلك [أيضاً] ، أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، وبعض ديار بكر وباقيها فى طاعته ، ومعه أيضاً صاحب سنجار (١) ، والملك المعظم (٢) صاحب إربل ، ومعز الدين (٣) صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضى الله عنه كل قليل قد أنشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل (٢٢٦ - ب) بسببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمراء الذين فى عسكره بمصر والشام ، ليستعين بهم عليه وخوفاً أن يميلوا إليه ، وبلغنى أن العادل قال - وقد بلغه خبر حركته - : أى رجل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البلاد جميعها وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معى عليه وقد أهدقنا به من جميع جهاته ، ومع هذا فلا يقنع منا بالسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعالى أعاننا [عليه] بكثرة أمراضه لعجزنا عنه . وبلغنى أيضاً أنه قال لما توفى السعيد نور الدين - قدس الله روحه - : ذهب من كان يخاف [منه] . ومن ذلك أنه ذكر عنده يوماً ملك والده السعيد قلعة حلب ، وأنه سلمها إلى أخيه عماد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها ، والله لو ملكتها (٤) لجالدت صلاح الدين [عليها] بالسيف بباب مصر .

(٢٢٧ - أ) وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من إنقاذها من العسكر العادل وإبقائها على صاحبها ، ولو أن ذا القرنين فعل ذلك لكان عظيماً . وما ذكرناه من طلب ملك البلاد والتغلب فمن علو الهمة وكبر النفس .

(١) هو قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى (الثانى) . (٢) هو مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك . (٣) هو معز الدين محمود بن سنجر شاه بن سيف الدين غازى (الثانى) . (٤) بالأصل : ملكها .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية . سمعت أخى مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عندهذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل من (١) رأيناه ، ولقد رأيت كثيراً من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم أسرع إدراكاً ولا أهدى إلى الصواب منه فى سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياده (٢) آرائه لاحتجت إلى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه (٣) فى حياته

فأنا أذكر ما رأيت منه . فمن ذلك أن أخى مجد (٢٢٧-ب) الدين — رحمه الله عليه — توفى سلخ ذى الحجة من سنة ست وستائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين — رضى الله عنه — إلى ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتى أقول لك ، فإننى أريد أصلى عليه — وكان الزمان صيفاً ، وكان رضى الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو موعوك البدن — فلما كان العصر وقر الحر ، أرسل إلى يأمرنى بحمله إلى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغنى عنه أنه بكى كثيراً وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً ، وحملاً له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فردّه وسألنى عن شيء كان بلاه (٤) بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمديده وأخذها ، [حدث] هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضاً إلى أن توفى بعده بسبعة أشهر ، رضى الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التى أنشأها بباطن الموصل (٢٢٨ - أ) مقابل دار المملكة ، وهى من أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفاً على ستين فقيهاً من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء (٥) .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين — قدس الله روحه كما نور ضريحه — قد عهد إلى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر (٦) المجاهد المرباط عن الدنيا والدين ، سلطان

(١) بالأصل : ما . (٢) بالأصل : اجاد . (٣) بالأصل : مملكة .
(٤) بالأصل : بلايه . (٥) أنظر وصف المدرسة فى كتاب « الموصل فى العهد الأتابكى » .
(٦) بالأصل : المظفر . المديوه جى (ص/١٤٢) .

الإسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، أبي المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته لأنى سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستسهل صعاب الأمور منه ، ويستحلى بقربه ، ويستلذ نسيم الهواء به (٢٢٨-ب) ولم يزل فى حجره ، وبين سحره ونجره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العهد له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل (١) .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة ولداته إذ ذاك فى أشغال
قعدت بهم همتهم وسمت به همهم الملوك وسورة الأبطال

فلما توفى السعيد رضى الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومشواه ، قام مقامه ، وحفظ من الملك نظامه ، وتلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى أثر السعيد بأبيه ، فى كل ما يندره ويأتيه

زاد على ما شاد آباؤه به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر كل الخلق عن شأوه حسرى وطال البكل إذ طاولوه

(٢٢٩-أ) وأضحت الدولة به باسمه ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد أن كانت باسرة ، وعابدها بهاؤها وروعها ، وفارقها عبوسها وروعها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات ما لم يسبقه من مضى ولا يدركه من هوآت ، عمت الأمير والمأمور ، وشملت (٢) الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما غير على حاتم وكعب ، وحير كل ذى عقل ولب ، وهذا موضع المثل : ليس السرف فى الشرف . وحين استقر فى الدست ظهر عليه من علو الهمة إلى معالى الأمور ، ومحبة العدل فى سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق ، من الحلم والسخاء ، والعفو والإباء ، ما لم يجار به فيه أحد إلا وسبقه ثانياً من عنانه ، ولم يبار به ملك إلا وجاء سكيماً فى ميدانه ، واشتهر عنه من العدل ما لو رآه كسرى لعاد خجلاً يتعثر بأذياله ، ولا ستر (٣) حياء من وراء حجالة .

(٢٢٩ - ب) من كان ذاك أبوه كان لمجده أن يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها لم يعدها إشراقه وعلاؤه

(١) بعد هذا اللفظ ، بياض بمقدار سطر كامل فى « النص » .

(٢) بالأصل : وسامت .

(٣) بالأصل : ولا ستر .

ملك إذا افتخرت بآباء العلي أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه في المكرمات الغرخاب عناؤه
ملك الجلال فأشرق لآلؤه وحي الجميل فأعرق آلؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكننا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهي ، أنه — خلد الله سلطانه — جلس في دار العدل للإنصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها (١) ببندقة عند (٢) الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر بإحضاره إلى الحاكم وهو عنده ، فحضر وسأوى خصمه [وقيل له الدية (٣)] أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بماله بذله ، وعن القصاص (٢٣٠ - أ) استنزه ، فعادت الإمراة وذكرت أنها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمح بمثلها ، ولم يدون في كتب التواريخ عدلها .

يأليت شعري من هذى مكارمه ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل سالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووقفه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولا زال سلطانه قاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولا برح جد عدوه عاثرا ، وذكره حاملا داثرا (٤) .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملا ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر عز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيرا ، وعلى ما فوض إليه (٢٣٠ - ب) من أعباء المملكة ظهيرا ، ليكون مدبرا لدولته ، وناظرا في مهام مملكته ، ونائبا عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأوليائه ، وبما ليك وأصفياه ، وكفاته وأمرائه ، ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم يرفهم أقوم سيرة ، ولا أخاص (٥) سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروءة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ، ولا أحسن اصطلاحا ، ولا أكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه أحكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الأمير الأصغر سار الكبير العادل العالم الكامل الأسعد المقبل بدر الدين [لؤلؤ (٦)] عضد الإسلام ، وسيد الأمراء ، حسام أمير المؤمنين أسبغ الله ظله ، وأعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

(١) اللفظ بدون تنقيط بالأصل . (٢) بالأصل : عن . (٣) الإضافة من « دى ملين » (ص / ٣٧٢) . (٤) بهذا اللفظ بياض بالأصل بمقدار سطر ونصف سطر . (٥) بالأصل : أخلس . (٦) الإضافة من الكامل (ح / ٩ / ص / ٣٠٤) .

أوحده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر (١) أن يجمع العالم في واحد

(٢٣١ — أ) خيث وجد ما كان ينشده ، وظفر بما كان يريد ويقصده (٢) ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان — رضى الله عنه — يتفرس في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين ألقافه وكراماته ، وولاياته وإقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هي أعلى (٣) منها مكانا ، وأرفع شأنًا ، إلى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر مقامًا يحمد عليه الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، والبادي والحاضر ، والمنجد والغاير ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللثام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسًا ، وأضحك من ثغور المروة ما كان عابسًا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره (٢٣١ — ب) اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه في أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على ساير الدهور .

إذا نحن أثنيًا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ بما مدحة لغيرك (٤) إنسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطرة من بحر مكارمه تناسب هذا المقتصر (٥) ، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتى على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى [الله] على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليمًا كثيرًا .

(١) ورد هذا الشطر من البيت بالأصل ، هكذا : وليس لله بمستنكر ، (٢) بالأصل : ويقصد .
(٣) بالأصل : أعلا . (٤) بالأصل : لغرك . (٥) بالأصل : المعتصر .